محمد الاحسايني

الـمـغـتـربـون

رواية

الطبعة الثالثة

الطبعة الثانية : وزارة الثقافة والإعلام بغداد، العراق، 1998.

الطبعة الأولى : دار النشر المغربية، البيضاء، المغرب1974.

1

على مقربة من نهاية **جبل الكست** الممتد شرقاً إلى الشمال الغربي، وعلى هضاب سفحه، تقع **أنامر**، القرية ذات البناءات الحمراء، المكللة ببياض تيجان قلاعها ذات الشرفات المطلة على مروج محصورة جبلين : جبل **الكست** العالي، وجبال **إيغالن** كما يسميه أهل البلدة. وتغطى غابة كثيفة الزيتون، والنخيل، واللوز، وآركان، وغيرها جانباً هاماً من سفح الجبل حتى **آزاغار-** السهل- الذي يخترقه **وادي أملن**؛ وهو يشق طريقه نحو المصب في **المحيط الأطلسي**، وقد ينضب ماؤه أحيانا قبل يونيه.

وفي منحدر **أنيل**، أخذت سيارة طريقها، مارة في الواحة، مكابدة الطريق في عناء، فأحدث أنينها صوتاً موسيقياً يوحي بقوة وعظمة الاختراع، تحت ظلال أشجار ومياه تنصب شلالات في الجداول؛ النسوة اللائي يرتدن العين قد أدرن ظهورهن عاكفات ملء جررهن. في حين، كانت سيارة قد انعطفت يساراً تصعد آخر منحدر من المنحدرات التي كان

عليها أن تقطعها قبل الوصول إلى **أنامر**.
النسوة في همسات وتساؤلات :
- ترى من الغريب أو المغترب الذي وصل ؟"
تجيبها أخرى :
- إنه **عبد المالك**، قد وصل "بسلامة إلى بلدته .
- وصل قبل حلول
الآخرين- قالت ثالثة :
وأخيراً، توقفت السيارة أمام **أنامر**.
كانت البركة ممتلئة حتى الثمالة، تنعكس على صفحتها الدور والأشجار، وعلى الأمامية، ضفادع لا تلبث أن تنغمس فيها سابحة، واحدة تلو أخرى، على إثر قدوم إحدى النسوة ترد ساحتها.
نزل **عبد المالك** من السيارة، عليها نظرة، ثم قال في نفسه : " أي روعة هذه ! أين **أبو عبادة** يصفها للعالمين وصفاً ؟ ! من حقه أن يعود إلى هذه القرية منبع طفولته، ومسقط رأسه، بدون تكلف، وبتلقائية ؟ بالحيوية تتدفق بين جوانحه.

همسات الطيور، وتغاريد البلابل، أسلحة نورانية تشق حجـاب الصـمت بـدء كل فتتجدد الحياة في كل زاوية من زوايا القرية.

وفي سـرعة، تجمع حوله صـبيان القريـة، سلموا عليه واحداً واحداً، بينما كان سائق سـيارة الأجـرة، منهمكا في إنـزال أمتعتـه، لينقـذه **المالك** بدوره، ورقة مالية، تسلمها منه راضياً.

وعنـــدما هم بالمضي سُـــمعَتْ فرنسية، داخل السيارة تقول:

أهذه هي **أنامر** ؟

أجاب **عبد المالك** تلقائياً :

- أجل.

- يا لروعتها !!

شعر ببعض الضيق، لكنه أجـاب بعد قصير :

- طبعاً، إنها جميلة.

- أتمكث هنا إلى الغد ؟

ضحك :

- بل أمكث-هنا- شهوراً، فهذا هو مسـقط رأسي ! ثم أغلقت الباب؛ وهي تقول في امتنان :

- إلى اللقاء !

- إلى اللقاء !

عادت السيارة أدراجها نحو **تافراوت**.

إذن؛ فلابد أن يعرف أهل القبيلة كلهم أن **عبد المالك** قد وصـــل، وصل فارغـــاً شيء، إلا ما تحويه حقيبته من الكتب والشـهادات المدرسية، وصل قبل حلول عطلة الصيف، هاربـاً من مشــاكل المــدن، بعد إخفاقه في بالجامعة، نتيجة فقر والده الذي لم يبق له أي ضـــــيعة يرهنها : لم يعد أشجار الزيتون، وعشرات من أشجار اللوز في جبل **الكست** الأصــم. " آه ! لو كــانت جيــوبهم تســتطيع الوصــول إليهــا، إلى **" إيرضــمان"** المدرجات الجبلية"- لما بقي منها شيء. أي هذا الذي لصق به ؟ فمهما حاول أن يبدو قويا، يداري القـوم بفلسـفته ومنطقـه، إلا وبـرزت حقيقة حاله ومظهره.

هل يخفى الجرح ؟

هاهو قد وصل إلى بلدته، وصل إلى ذات تقاليد عريقة في القدم، طـال عهـده بها طفولتـــه، لم يتغـــير منها شـــيء منذ العصـــيان المـــدني ضد الضـــابط الفرنسي **تافراوت**، لم يتغير منها شيء، منذ أن حاصـرتها قـــوات " لاليجـــو"، واعتقلت رجالها : شـــيوخاً، ورجـــالاً، وشـــباناً، واســـتخدمتهم في التعسفي والسخرة. السبب، أنهم قاوموا، زرعوا قنابل، أحرقوا سيارة " **القبطان**".

لقد أتى به والده **فاتح**، إلى **الدار البيضاء** من **أنامر**، ليتعلم في مدارس المدينة، وكانت المدارس يومذاك، غير موجودة "الدواوير"، أيام **الحماية**.

وسرعان ما نبه في دراسته، نال الشهادة الابتدائية في **مدارس أبناء أعيان المسلمين**، ثم حدث لأبيه عارض، فباع متجره، وتركه كنف زوج عمته، ليتابع دراساته في **المدارس الحرة**، لكن العائلة غارت منه بعد أن حصل على الشهادة الثانوية، افترق عنهم، واكترى لنفسه شقة في شارع فوكو، يستغلها منذ ثلاث سنوات، يستعين على مصاعب الحياة بأربعة آلاف ريال، يتلقاها من والده **بأنامر** في انتظام، رأس شهر.

وهاهو قد عاد إلى مسقط رأسه، بعد أخفق في الالتحاق بالجامعة، نتيجة وعوزه، ولأنه لم يتلق بانتظام، المبلغ آلاف ريال.

حمل حقيبته، وسار يصعد المنحدر بيته، بينما كان أنين محرك " سيارة المسافرين" لا يزال يطن في أذنيه، بعد رحلة دامت عشرة ساعة متواصلة.

لم تمض بعد، أربع وعشرون حينما قطع الحارس جزءاً من تذكرته، فانطلق

صوب الحافلة المتجهة إلى **أكادير**. كان آخر مسافر يصـعد إلى الحافلـة، وكـان عليه أن أي شيء يتوقعه مسافر يغيب في طريق يبدو له كأنه لا نهـائي، وأحيانـاً حلزونيـاً، عنـدما الحافلة إلى الهضاب والجبال.

استوى على المقعد الـ 12 المخصص له. كانت ساعته تشـير إلى السـابعة عشـرة وخمس عشرة دقيقة. بجـواره على اليمين، رجل ضـخم، يغط في نوم ثقيل منذ أن انطلقت الحافلة ...

بعد قليل من ذلـك، صـعد أحد **وكالة السفر**، مصحوباً بلائحة المسافرين، أخذ في الإحصـاء والتثبت من صـحة التـذاكر، واحـدة واحـدة، ثم ناوله السـائق أوراقـاً ليـنزل الحافلة، فيصفق وراءه الباب بعنف، آمرا السائق بالانطلاق !

- " أون آفان" !"

... وهمهم محرك الحافلة، ثم هدر هديراً، ارتجت له المقاعد واهتزت.

تحـركت الحافلـة، ثم انطلقت شوارع المدينة.

وفي أحضـان المغيب، ارتمى الشمس، تبتلعه آفاق المحيط الأطلسي. السـماء محمرة الوجنات، موشـاة زرقتها بطـروز بيضـاء، من سحائب أبريل 1959.

آفاق المدينة تغبق خمرة الربيع !

وفي منتهى شـــــــارع

انتصبت عمارات شواهق ينطحن البقية الباقية من أشعة الأصيل !

كـــان ينظر من نافـــذة الحافلـــة، نظـرات أخـيرة على مدينة شـهدت مرتع شـبابه، قبل أن يغادرها. لا يريد أن يعـرف كيف جـاء مسـكوناً بـأحلام أطلسـية، وبقزحية الصـخور، بصـوف الأطلس، وبإيقاعاتـه. كيف تبـدد كل بين هذه الشوارع، وتلك الأزقة، يحلم تارة، ويشقى تارة أخـرى. رأى منظر العمـال يعـودون إلى مـآويهم، بعد مضي نهـار ملـؤه الكد والكـدح، المـارة الـذاهبين الآئـبين، شـاهد طفلاً يجثو ركبتيه يلمع حذاء أحد زبناء مقهى من مئات المقـــاهي المنتشـــرة في المدينـــة، جماعة فتيـات يسـرن في دلال. وعند مفـترق الطـرق، شيخ مقـوس الظهـر، يعـبر مقطع الطريـق. تنهد يغمغم :

- " العيش بعدكم عدم" !

هكـــذا تـــذوب كل تلك العناصر الشوارع، أنوارُها، كأنها رقم هائل، يضرب أخيراً في صفر. الناس والأشياء، أرقام، أرقام لا غير !

أخذت عوالم المدينة تختفي شيئاً فشـيئاً، بينما كـــانت الحافلة في طريقها نحو **الجديـــدة**

آه ! آه يا **بريجة** ! يا **مازاغان** ! يا خصلة شعر منسدلةً على جيد لؤلـؤي ! قـدٌّ يميس الســاحل، يضــرب لقــاء مع النســيم برتغالية أنهكها المحو، وضَعة الزمان !

مـــاهي الآفة ؟ المحـــو، أو الحجر ؟ الموت أو الحياة؟

الحكم لم يصدره بعد، على العالم.

إنه غــارق في الســؤال والاســتقراءات المهم أن يعــرف مــتى يخــرج، ومــتى مناخات متباينة: " العيش بعدكم عدم" !

أمــارات الليل تغشى الأبصــار، والطريق صــوب الجنــوب، لســان طويــل، طويل الحافلة طياً. ما الفائدة ؟ لقد ضيع فرصة سانحة في هذه المدينــة، أو تلــك، كــان يحلم **بفينوس،** يحلم بها آتية من عــالم بعيــد، تهمس إليه الشــعر، والمــرح الإلهي، تمد إليه يــداً مرمريــة، تحيله كــائن قدسي ينسى المــوت، والحيــاة الفانيــة، فيذوق من نكهة الخلد، ينعم بعرائس البحر.

إلا أنه أضاع كل شيء، كل شيء. لا يدري كيف أضاعه.

اســتغرق الســفر أكــثر من ثلــثي الليــل، صوب **تزنيت**، موطن الجمال السوســي، بأغانيها وقلاعها، بآهاتها وحسراتها، بحليها الفضية. ولهــذا النــوع من الحلي جمالية خاصة عند النســاء

سوس. أما الحلي الذهبية، فإنها تجعل المرأة تبدو كجارية.

رائحة النعناع تهب على المدينة مصحوبة بنسيم الصحراء، فتحيلها إلى ألطاف إلهية.

أين يبتدئ إقليم **سوس**؟ لا أحد يعطيك الجواب الصحيح والنهائي : الخرائط؟ دعها جانباً.

وادي **درعة** ؟ ربما. إقليم **تارودانت مراكش**؟

سوس، هي اللابدء، واللانهاية : الأزل. فشلت كل الحسابات والافتراضات.

كان قد استسلم لغفوة مع الظلمات، لم يستيقظ إلا مرتين أو ثلاثاً : الأولى **بأكادير**، والثانية، لم يتذكرها من شدة الإرهاق، والثالثة في موطن الرباب، **تيزنيت**، حيث الوصول، وليس نهايته !

نزل مع الركاب، يحمل حقيبته. بدا غريباً وسط فلاة. سأل عن **تافراوت**، فدله عليه أحد الغلمان. الإنسان يحار في هذه المدينة، يتردد في مغادرتها نحو رأسه، فكأنها آخر مدينة تحاول أسره، والحفاظ به في رياض، تحت حراسة مشددة من الفتنة هناك، كانت العيون تتحدث، الأجواء تكلمك؛ وأنت ترجو تقبيل العتبات، قبل تقبيل الراحات.

أخيراً؛ وقد أحس أن كل شيء ينفلت منه في معـــرض البهـــاء، ارتمى في الســـيارة، الســائق بــالانطلاق نحو **أنــامر**، هز هــذا حاجبيه كأنما لا يريد أن يعرف، ثم قال بعد تردد :

- أين تقع **أنامر** هذه ؟

- في **المريخ**.

تصنع السائق جدًّا على جهله :

- أين يقع **المريخ** ؟

- يا أخي إنها من قرى **تافراوت**.

- "هان"... طيب !

وأضاف محذراً :

- الأجرة خمسة آلاف فرنك

- ما عليك إلا أن تنطلق.

أخذت السيارة في التحرك، ثم ما لبث أن استوقفتهما شابة أوروبية، قالت بلسان فرنسي :

- هل يمكن لي أن التاكسي ؟

نظر إليه السائق، كأنه يريد أن يستعين به للرد عليها. فهم سر نظرته، وسرعان ما أجابها:

- طبعـــــــــاً، نحن الآن **تافراوت**.

- طيب، من فضـــــلكما، إني أقصدها.

فتح السائق الباب الخلفي، فصعدت، لتسمع **عبد المالك** يرحب بها :

- تفضلي آنسة.

تعرف عليها، علم أن اسمها أستاذة بكوليج في **الدار البيضاء**، خصيصاً لدراسة تقاليد القرويين في الجنوب.

اسم عابر، مر كغيره من الأسماء التي تزور قرى الجنوب، التي هي محط دراسات الأوروبيين منذ أكثر من ثلاثة قرون.

ماهي إلا ثوان، حتى كان في دهليز والده. دق الباب، ثم سمع صوتاً يعرفه جيداً. وما انفتح الباب، حتى وجد نفسه، أمام والدته وجهاً لوجه. اندفع يسلم عليها، فسبقته السيدة عناقه وتقبيله، هتفت به: " أهذا أنت يا كبداه؟ ! ". قبل أن يجيب، توالى سؤالها من شدة الفرح، حتى اغرورقت عيناها : " كيف حالك يا بني تذكر فشله في الالتحاق بالجامعة، ومصاعبه المالية، فاضطر إلى الإجابة تهرباً المشاكل : " بخير".

قادته إلى الطابق الثاني ممسكة بحقيبته تحْمِلُها، فأخذها منها إشفاقاً.

كانت الدار عبارة عن بناية بربرية بسيطة مبنية باللبن الأحمر القاني، والحجارة الصلبة البلقاء الناصعة البياض، لم تنل منها السنون؛

إن كل ما طرأ عليها، مجرد تخضيب أحدثه نزول السوائل والغبار.

تتألف الدار- التي تبدو كقلعة صغيرة- من حظيرة الدواب، يحيط بها سور غير مرتفع، وحظيرة البقرة الداخلية.

تبع والدته، صعداً إلى الطابق الأول الذي يشتمل على مطبخ بربري تحيط به تستعمل مخازن للمؤن، والملابس، وغرفة خاصة للرحى. وعندما شارفا الطابق الثاني، سمع صوتاً رقيقاً يسائل :

- من الطارق يا أماه ؟

قالت السيدة **ماماس** بصوت ملؤه الحبور:

- **زينة** ! هاهو أخوك **عبد المالك** والحمد لله !

...وانسابت فتاة من غرفة الضيوف المؤثثة على الطريقة الأهلية، تمايلت كالغصن؛ وهي سائرة إلى القادم الجديد تتلقاه.

كانت قد تخطت الخامسة عشرة، وجه سني، تعلوه مسحة من جمال قروي، أسمى مظاهره، سذاجة تعبر بها عيناها، وصبر يرتسم كظل زائل، على حافتي شفتيها. أما الثوب ترتديه؛ فعبارة عن فستان سوسي، وشال

مزركش الألوان قزحي، لحفت به نصفها الأعلى، فأضفى على الجسد الأهيف روعة فائقة.

والسر في جمال المخلوقات، خفي دائماً عن أنظار الفلاسفة والباحثين؛ فهو ضالة الفنـان، كالحكمة بالنسـبة لكل مـؤمن ينشـدها. طالما حدثتها والـدتها عن أخيها **عبد المالك** هـذا، آماله العريضـة، وبنيته القويـة، فهو الساعدين، عريض المنكـبين، ابـرز ما في وجهـه، عينان متقدتان، ينبع منهما جمال فيـاض. شـعرت برغبة في القرب منه مدفوعة بكثير من الاعتزاز؛ وقد تذكرت قولها لأحد شبان " العآمت"[1] يوماً :

- لو كان أخي حاضراً لأدبك !

فهو بجانبهـا، حـامي الحمى، للأسرة ذكر سواه !

واقترب الأخـوان من بعضـهما فتعانقا حرارة.

وبتـأثر، فتح حقيبة ملابسـه، فستاناً وجدياً اشتراه من **البيضاء** مع قلادة من الجواهر الشعبية. قال :

---

[1] - **"العآمت" : كلمة تطلق على الشباب، تعادلها كلمة " الفتـوة"، أو " الأخـوان"، ولعل الكلمة مـأخوذة العربيـة، إما بمعـنى " العامـة" ضد "الخاصـة"، وهـذا بعيـد، وإما بمعـنى العم، دلالة والمراهقة، والرجولة، من أطوار حياة الإنسان.**

-هذا الفستان، والقلادة لك ! والملحف الأســـود للوالـــدة. أما الجلابة فهي من الوالد !

وفي فضــول قــالت؛ وقد شــعرت التقــارب بعد أن لمحت صــندوقا كرويــاً داخل الحقيبة :

- وهذا لمن ؟

قهقه فأجاب :

- لأخيك **عبد المالك**، يفعل به ما يشاء !

ثم ربت على كتفهـــا. علت ضـــحكاتهم جميعا وقد أشبعتاه، ثناء ودعاء بالخير. أخذ اليأس يختفي، أو يتوارى وراء فرح طفولي.

لا يريد أن يقــارن ربيع **الــدار البيضــاء** بربيع **أنـــامر**، الربيع هنا معطـــاء، والحيويـــــــة، بينما لم يتبق خطوط باهتة لربيع مفترض. قالت والدته، بعد أن غامرتها فرحة عظيمة بقدومه :

- كادت **زينة** تلتحق بك، في **البيضاء**، لو لم تحضر.

ضحك في تسامح مشوب باســتغراب، خلع سترته وحذاءه، واستوى جالســاً على ســجاد في غرفة الضــيوف. إلا أن الأم، أدركت بخلده، بفطرتها، فقالت :

- كانت ستسافر مع عائلة **السي حسن**.

فتح الشـــرفة المطلة على السهل- كأنه يطرد عنه الاندهاش.

لا يريد الحـــديث عن **الـــدار** إطلاقاً، فهو قد عاد منها، بعد سويعات قلائل ماضـــية، ولا يحب تلك التمنيـــات الـــتي كالســـحاب، فيتبعها الإنســـان، إلى أن تتبـــدد الآفاق. سألها :

- ولم هذه " العجلة " ؟

شعرت بحرج، فأردفت متخلصة :

- على كل حال، ما زال لم يتقرر سفرها، لأن حرمه، تريد البقاء في **تافراوت** مدة أطول.

لم يلق بـــالا إلى هـــذا الموضـــوع، يسألها عن والده؛ فتنهدت متحسرة :

- مســـكين، **فـــاتح** ! لقد رهن كل أملاكه من أجلك يا قرة عيني.

ثم التفت إلى **زينة** الـتي كـانت بـدورها، تنصت لكل ما يقولان، فأمرتها

- هيئي لأخيك فطوره.

دلفت الفتـــــــاة إلى وحيدين.

تساءل :

- أين أبي الآن ؟

- يعمل بضيعة في **تافراوت** ليغطي بأتعابه، مصاريف البيت.

عض شفتيه : لقد أصبح أبوه، التاجر، أجيراً.

عادت تتمم كلامها :

- لا تظنن أن تكاليف المعيشة هذه البلدة. نجن هنا، يا بني، كأهل المدينة، حاجة إلى أكل جيد، وطبيب، وتربية.

كانت **مماس**، تتحدث بانفعال، جعلها تبدو صغيرة، رغم أن سنها، الخامسة والأربعين. لا فرق بينها إذن، وبين الشابة الأوروبية التي صاحبته في السفر **تيزنيت** إلى **أنامر** ... كل الناس سواسية، الفقر المدقع الذي يحول بعض الناس إلى الحقارة والوضاعة. فعلا، ظهرت عوارضه على والدته، في نبرات صوتها، على وجنتيها الذابلتين، وفي ثيابها الزهيدة التي محتها شمس **أنامر** خاف أن تذوب أسى وقنوطا، فقال :

- بعد قليل، أغطي كل النفقات.

قالت كالمغلوبة :

- ذلك ما أتمنى.

ثم تحولت تسأله عن الأقارب المغتربين في المدينة، فأخذ يخبر عن كل ما تسأله

بينما وضعت **زينة** " صينية الفطور" أمامه.
تحركت شفتاها في ابتسام :
- أرجو أن تأكله بشهية
يأكله بشهية ؟ لقد انسدت شهيته، إذ يركز بصـره من الشـرفة، على **أزاغار**، والواحة الممتـــدة من **أنـــامر وأنيل** لتلتقي **تيدلي** التي تسبح بدورها على الهضـاب لتتعـانق مع واحة **أنــامر** في عشق أزلي، نخيل نخيلاً، وأشجار من الزيتون، شـارفت ثلاثة قـرون، تتخللها أشـــجار الســـماق و" إيركـــل" برائحته النفاذة، وقرون تمتد إلى أيام **المنصور**...
هل له أن يـدرك سر وطنه الكبـير من الماء إلى الماء، من خلال رائحة العشب في حقول **أنامر**؟
لابد أن تتمدد الدائرة، وتتسع حتى تحيط بكل شـيء. اسـتفاق على صـوت **زينة** تلح مجددا:
- أرجو أن تأكله بشهية !

2

يلتقي شبان القرية : فتيانا وفتيات، أصيل كل يـوم، في **تادينـارت**، إلا في أيـام **أحـواش** الرقص الشعبي- أو في عرس، يتغازلون. وهناك، تدار أكؤس الغرام، لكنه غرام عذري في كثير من الأحيـان. فتلك اللقـاءات؛ وإن كـانت تـدور محـور عـذري، غـير منتهـك، جعلت بعض الطلاب المتفلسـفين، المتمنطقين، يضـجون بالشـكوى، داعين إلى محاربتها، لأنها في نظرهم (تجـرى منــأى عن الأعين الكبــيرة، وكل ما الأعين، يجب إعادة النظر فيه) حجتهم، أنه في

تلك اللقاءات- مثلاً - يتشبث **زيد بهند**، ولا تلبث **هند** بـدورها، أن يتزوجها **عمـرو**، فتصـبح هنـا، مشكلة المشاكل"، لأهل القرية المحافظين على تراث قديم من التقاليد؛ وهي حجة ضـعيفة لاحظ ذلك شيوخ قدامى، لهم دراية كبـيرة بتقاليد **العآمت**.

قـــال بعض الطلاب، ممن أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة :

- ما جــدوى هــذه اللقــاءات، إذا على مرأى ومسمع من الآباء ؟

فأجاب الثاني :

- النـــاس هنا محـــافظون، كيف يجري ذلك؟

- **زيد مع هند**، وأخيراً يتزوجها **عمـرو** ما رأيك في هذا ؟

- البقاء للأقوى. قال ثالث بتشاؤم :

- ما كل الأزواج أقوياء- أجاب الثاني.

- هل ينطبق ذلك على تقاليد القرية- قال الثالث. ضج الثاني:

- بالطبع لا.

قال الثالث :

- أقترح أن يجـري ذلك تحت أنظـار الناس، فالمغازلة لا عيب فيها.

ثم يسدل الستار، على المناقشة العقيمة، طالب رابع:

- كـان ذلك يجـري أيـام الطيبوبـة. أما اليوم، فإننا أمام فضول الأدعياء والمتحذلقين.

إنه صراع أجيـال : جيل له مفهـوم، تال، له مفهوم آخر، وربما تعقب أجيال متباينة المفاهيم، هكذا كان يعتقد هو.

التقى بشـاب كـان يعرفه جيـداً يغترب في المدينة. إنه **قاسم بن عدي**. كم كانا يلعبـان في طفولتهما جريـاً في أزقة أ**نـامر** فلا يكادان أن يفترقا، حتى اغترب كلاهما !

تبـادلا التحية والسـلام، هنـأه هـذا الأخـير، على حصوله، على شهادة البكالوريا، فشكره، ثم إن **قاسم** صـحبه إلى الواحـة، كأنه تـذكر طفولتهما.

شـارف الشـابان **تادينـارت**. وفي طريقهما التقيا بأفراد **العآمت**. وعلى مقربة من زيتونة، فتاة رشيقة القوام، ذات حور في سمراء في غير سواد، بيضاء في غير شقرة، كاملة الأنوثـة، تزخر كلها بمفـاتن الحب، ونضـارة الصبا. ما أن رآها، حـتى قـال في نفسه " تـركت السـمراوات والشـقراوات **بالبيضـاء**، ولكنـني حللت الآن ببلـدة الفـواتن !". أما **عدي** فقد تصنع عدم المبالاة.

كانت الفتاة مازالت تقتطف لها حشائش، حينما تذمرت، فأخـذت تبحث عن شـيء مفقـود، مفقــود فعلاً، ثم رفعت رأســها عن الحشــائش، ونباتــات الطفيليــات الجانبيــة، فاســتقامت، التقت عيناها بعينيه، قالت برزانة موجهة كلامها إليه :

- **أيها الأخ**، ألم تر في طريقك حذائي ؟

والتفتت إلى **قاسم بن عدي** الذي بدوره :

- لم أشاهد أي حذاء في طريقنا.

ودون أن تكـترث بجوابهمـا، راحت تبحث عن فردة الحذاء هنـا، وهنـاك. وسـرعان ما شـاع الخبر بين **العآمت**.

أخذ يتصـور فتـاة في مثل هيئتهـا، تمشي بفــردة واحــدة، تطأ شــوكا وحصــى، ربما العقارب في غسق المساء، أو تخرج الأفاعي من أجحارها؛ فالأمر ليس إذن سهلاً.

انكب الجميع على البحث الحـذاء، الكل في سـباق، سـخر منها ومنه شـبان أدركـوا أنهم لن يعـثروا عليهـا، وكـانوا أقـرب الصعاليك من خلال حديثهم إليه :

- " اشــتر لها حــذاء جديــداً... بع دفاترك".

- " ليس هناك بائع الحمص، كما يألف التلاميذ في **الدار البيضاء**". قال آخر، يواصل تهكمه. أما الثالث فغمز :

- " الناس هنا لا يأكلون الخروب، إذ تعلف به البهائم فقط !" تمالك أعصابه دون أن عليه رد فعل لما يتهكمون به، فانهمك في البحث عن الحذاء المفقود. لما تعب، ترك الجميع. اندفع مع **قاسم بن عدي** نحو **"الوادي".**

عبرا جسراً صغيراً حجرياً، ما أن شارفا شجرة تفاح، حتى حياهما فتى في نحو عشرة، قصير القامة، يبدو على وجهه، كآبة، وشأن عظيم، يرتدي قشابة شلحية وفوقية، وكان قد أرخى شعره القصير، غرة مسدلة جبهته الواسعة، كانت هيئته، أقرب إلى **بلزاك**... فتى ذو جبهة نحاسية... تقدم **قاسم بن** فسلم عليه :

- مساء الخير، **بدر**.

وفعل مثله **عبد المالك** :

- مساء الخير !

ثم سأله **قاسم** بالفرنسية :

- كيف بلدتكم **آزرو- واضو** ؟

فشرع الشاب حينذاك، يرتل قصيدة بالفرنسية مطلعها : " وداعا قريتي **واضو** !".

أحس **عبد المالك** بدوره، بنوستالجيا تجـاه قريته **أنـامر** الـتي تعـني المشـمّس المعـرض للشـمس. لعل أجـداده في أثـرتهم القبلية، اعتقدوا أن الشمس لن تغيب عن هامات قلاع **أنامر**، كذلك، قد تكون **آزرو-واضـو-حجر الـريح**- شـاهدة على هامـات الجبل وذراه تكون بقية القـرى شـاهدة على ذلك السـمو ربما اكتفى الأوائل باسم **أنـامر**، لسـبب وحقيقي، كقياس الزمن بالشمس وحسب... كلا ! فلا أحد يجادل في ذلك السمو، سـوى لحضانة جبل **الكست** الممتد طـولاً وعرضـاً، الجانب الآخر- تاسكَايان- الذي هو **إداكنضيف** بالنسبة **لآملن** أو **آملن** بالنسبة لـ **إداكنضـيف** منبع الجمال، والفتنة، والرقة، والنخوة.

عبد المالك، كثـيرا ما انتابته العشق الجنـــوني **لحجر الـــريح والوادي، والصخر**.

هو وحـــــده- من خلال المخطوطات- يدرك كيف كان يشتعل **الوادي**، **وفوق الوادي**، **وداخل الـوادي**، في **الحْركة** أو كيف تنشـغل هـذه القبائل بالمـآثر بين **جزولة** وبين **تاحقـات**، فتشـتعل **آملن** كلها إما يذكي المفاخر، وإما ناراً تأكل الأخضر واليابس.

تبتدئ أحرف التنابز الأولى تتوالد من طين بليل، وتتعانق مع وهْم الرفعة؛ فيسري العشق حينئذ، في الوادي كله، في واحاته ونخيله.

تبحث الأحرف عن طفولة لحن، في عين الشمس، في اليباب، وفي خرير الماء. ذلك سر الأسرار، يغطيه الليل بالقلاسي، ويسكب عليه النهار، سراباً. يلمع مع النجوم، ويخبو ببزوغ الشمس، تبحث عنه الذؤبان في الجنوني. لكن **الأطلس** يخفيه أبداً: **الأطلس** جبار، إرادة أعظم من الموت ! الذئب شيئاً !.

أخذ يرسم طوبوغرافيا للحلم، يرسم قصيدة عذراء، يلثم الشفة، شفة رؤيا بمكنونات المستقبل، يرسم بعباراته، يسحق المراحل، يحرقها على أنقاض ماض مندثر.

وادي أملن، انتقام لثأر مدفون، وانتهاك لهدنة بين قطاع الطريق، والسفاكين، مزايدة طوطمية كثيراً ما أدت إلى محو من كان يحكم هذه القبيلة أو تلك ؟

أشياء كثيرة كانت تؤدي بالأجيال السالفة إلى مثل هذا الجنون : يقطعون مئات الكيلومترات في الغربة، ما **وطنجة**، **والقنيطرة**، من أجل الأخذ بثأر ما، أو نزع شجرة لوز من يد غاصبيها.

سأله **قاسم بن عدي** :

- ماهو أجمل منظر في **وادي أملن** ؟

ضحك في ابتهاج، فأجاب :

- أيها المغـرور بسـيارته، لا شـيء من واحات النخيل، وهذه " الكًصور" الممتدة حتى **وارزازات، وتافيلالت**.

ثم أضـــاف كأنما يخـــاف القائمة :

- أشعر دائما بالانتماء إلى الواحـات شـبه الصحراوية، وإلى هذه الجبال التي تنطلق ممتـدة حتى تتلاشى مع الصـحراء الكـبرى، تمهد الطريق نحو السهوب القاحلة، حيث رمال تتحرك، وجبـال أخـرى راسـيات، وحيث تتـدفق حضـارة أخـرى **للطوارق** في بطون المدن الطينية.

- أنت مجنــون حقــا. قــال **قاسم عدي**.

تركه في تأملاتــه. مــاذا للفقــراء عبقرية سوى تذوق الجميل، والبحث عنه ولو في المفازات؟

عاد من حيث أتى بدون رفيق. أما **قاسم**؛ فذهب لقضـاء بعض مآربه في دوار **مسعود.**

وفيما هو يقطع جسراً، سمع نسوة يتحدثن عن فردة حذاء نسائي. تنفس الصعداء، تردد قليلاً، إلا أنه تجرأ، فتقدم يلتمسه منهن:

- إن صاحبته جادة في البحث عنه.

مدته إليه إحداهن، ليستأنف طريقه الأدغال. وما لبث أن وجد نفسه في **تادينارت.**

كان لا يزال يسير بعد أن اجتاز الجسر الحجري الصغير الذي قطعه قبل.

ما كاد يرى **العآمت** حتى لوح بالحذاء، رأته صاحبته فعرفته، جرت إليه تريد أن تأخذه، لكنها انشغلت به هو، إذ بدا لها، شاباً القامة، جميلاً في غير تأنق، حسن الهندام. ما كادت تضع يدها على الحذاء، حتى متناول يدها، قال بجراءة لا يدري من أين أتته:

- هذا الحذاء قد عرفناه الآن. أما كان لنا أن نعرف من أنت؟

احمرت وجنتها، ترددت :

- من تكون أولاً تلك الأجنبية التي جاءت معكم في السيارة هذا الصباح ؟ !

- إنها فرنسية وكفى. قال غير مكترث بالسؤال.

- ما سبب قدومها ؟ (تجس نبضه).

- لقضاء بضعة أيام في **تافراوت**، حسب ظني، قبل حلول عطلة الصـيف. ثم أردف :

- جاءت لدراسة تقاليد النــاس في **آملن**.

- إذن هي معلمة أو أستاذة !

- أجـل، أجـل، اسـمها مـدموازيل **بوديه** أستاذة بكوليج للبنات في **الدار البيضاء**.

نفذ صبره :

- من أنت ؟

تجاهلت سؤاله، ألحت عليه :

- قل لي أتحبها ؟

- بهذه السرعة ؟

- أجل بسرعتك المعهودة.

تأملته بشيء من الإحراج، ثم أضافت :

- لك عينــان جميلتــان، تأسر بهما كل رأتك.

وفيما تفاجأ بهـذا التغـزل غـير المنتظـر، تنهـدت هي، فـاحمر وجههـا، لكن جرأتها إليها:

- آه !! وقوامك الرياضي هـذا الـذي يبـدو فيه وجه يزخر بدلائل البشر.

وفي ما تظاهر بعـدم اكـتراث؛ وقد بلذة النصر والهزيمة معا :

- إذن، فأنا محظوظ.

احتجت :

- لا تسخر !

وبعد ثوان سألته :

- أين تعارفتما ؟

أقحمت خلوته بهذه الأسئلة، فاضطر أن يجيب بشكل طفولي:

- في التاكسي. لم نتحدث إلا عن جمال هذه البلدة.

تهدج صوتها، علته نبرة من التذمر له به سابق معرفة قديمة :

- حسبك ذلك، وكفى !

لماذا تبدو النساء في الجنوب صرامة وصدقاً؟ **المرابطون** كانوا ملثمين. أما نساؤهم، فكن سوافر. سبق له أن رأى مرابطة في الجنوب، لأول مرة، فتورط في الإعجاب برقتها وجمالها إلى حد الجنون. لا يدري سر ذلك، بينما كان غيره، لا يعيرها أي اهتمام. طوى سرها في قلبه، لينصرم مع الأسرار الأخرى. ترى، كان صادقاً مع نفسه حقاً ؟

ما زال وقع سؤاله يطن في أذنه أنتِ ؟" هل هو سؤال وجيه ؟

أليس سوى عبارة انفلتت من دهشته ؟

انتعلت حذاءها، فانطلقا في أثر **العآمت** الـذين شـارفوا الـدوار. يبـدو أن الجماعـة، بـدأت تبتعد عنهما. سار إلى جانبهـا. وفي أثنـاء الطريق بادرته بجـرأة : " ألك خطيبـة؟"ـ وكأنه وجد شـيئاً ضاع منه:

" كـوني أنت تلك الأنـثى الـتي يرسـمها الخيال في الأعماق، تعـالي". أخـذها من يسـراها بجرأة غير معهـودة، وأضـاف : " إيـاك أن تكـوني أفعى تغـــدر بي !" أفعى ؟ ما خطـــرت بالبـــال، إلا وارتســمت معها صــورة أفعى خطر رجــل، إلا وارتســمت معه تفاحــة ! كـانت تنظر إلى حلقه حـتى عند ابتلاع الريــق. حجبتهما زيتونة عن أفـــراد **العـــآمت**، ثم دس وجنتيهـــا، التقت عيناهما تحت أشـــعة الأصيل، رشف من عصارة شفتيها الزاخرتين بالأنوثة الطرية، ونضارة الشـباب، اسـتغرقت نشوتها إلى هذا الحد، نسيت كل شيء، الحذاء المفقــود، والفصــة، وموعد دخولها إلى أزالت كل الحواجز التي كانت تحول دون حريتها " من أنتِ" لا يهم ! يسألها من هي ؟ إنها اندفاعة موج يتكسـر، يرسم دوامة سـحيقة في الأعمـاق. هـذه هي ! بركـان من العواطف الجياشة ضـلت الطريـــق. أدغـــال الواحة تحجب ذلك بالنسبة إليها.

هو يعرف تفاهة سؤاله الذي يسـعى للبحث عن الأكناه. لكنه عاد يسألها في غمرة

جرأته: " من أنتِ ؟" تخلصت منه باحتراس: " لا جـدوى من السـؤال ؟ تسـألني من أنا ضحكاتها المتواصلة، لتمحو أسـئلته، وتـترفع على جرأتـه، بينما ظل مشـدوهاً. اسـترقت هي النظر حواليها، ولم تسمع إلا تحنحة[2] أصـوات **العـآمت** ونداءاتهم، على المتخلفين للالتئام والتجمـع، الافـتراق. رمت حشائشـها على الأرض، قبلة حـرَّى، ثم تخلصت من ذراعيه بمهارة. عادت تحمل حشائشها، تسويها في سـلة الدوم [2]. تركته وحيداً تجري للالتحاق **بالعآمت**.

ملأ صـوتها شـرايينه، جـرت نـبرات الصوت في كيانه كلـه، ظل يسـائل نفسه : " من هي؟"

نظر حواليـه؛ وهو لا يصـدق، أشجار الزيتون الكثيفة صامتة. ملكت عليه كل حواسه، سمع صوتاً بداخله:" متى أصير كالظبي، أسير على حواشي الصخور؟".

لو كـان شـجرة دفلى العذارى، يغتسلن في الـوادي بعيـداً عن الأنظـار، لأكتشف أسـرار هـذا الـوادي، أو تلك الفجـوة الأرض، لو كـان يجـالس عـرائس البحر كل يحتسي من أشعة الأصيل ! ماذا يجدي ذلك الاكتشاف ؟

---

[2] **- القرويون في الجبل، يستعملون الهمزة الممدودة أو الـواو المشـبعة للنـداء، وقد ينحنحـون الاستحسـان، وكثـيرا ما يضـفي الصـدى على الأصوات، جوا موسيقيا رائعا.**

" من هي؟"

إنه عرضة للمفاجـــآت منذ **أملن**. وتحت تأثير الطبيعة والناس، سوف يتعلم من تجاربه كل شــيء، ســوف يتخلص من لصق بـه، ليبـدو مع نفسه في وضع فطـري. ومع ذلــك، لن تمكنه براءته إلا من الانــدحار، ومرات ...

ولن يكتشف شيئاً، أو يظفر بمعنى.

غريب في مسقط رأسه!

3

جلس على السطح العلوي، كانت والدته منهمكة في طبخ الخبز في الفرن الــبربري، راحت **زينة** تحلب البقـــرة. بعد دقـــائق، والده، تقدم فقبل يـده في خشـوع، هو يـدرك تقبيل اليد، إنما هي عادة قدمت إلى المنطقة من الغرب[3]. قال **السي فاتح** بصوت منهزم :

- كيف أهل **الدار البيضاء** ؟

- كل الناس بخير.

استرسل **السي فاتح** :

[3] **- المقصود ب"الغرب" : المدن كالدار البيضاء، والرباط إلى طنجة، وكانت تطلق قديما في سوس على مدينة القنيطرة ونواحيها.**

- أحوالك المدرسية، أنت ؟

لم يجد حرجاً في الإشارة إلى وضعه :

- على ما تــراه من شــدة احتيــاجي المصاريف.

- طيب، أهلاً بك وســــهلاً حال.

كــانت الســيدة **مامــاس** تتــابع جيــداً، وباهتمام، ما دار بينهما. ومن ثم، أخذت تقول :

- **عبد المالك** يحاول أن يبز أبناء القرية جميعاً (وتنهدت).

رد عليها :

- ذلك لا يعنيــــني في الدرجة أريد أن أصبح محامياً، أضمن لكم ولي، عيشاً رغداً.

أضاف والده على قوله :

- الأمور بيد **الله.**

سارعت **ماماس** تستدرك :

- **عبد المالك**، في حاجة إلى مسكين !

رد الأب في تنصــل، شــأن من يــزيح كاهله مسؤولية جسيمة :

- لقد رهنت حقولي كلها من أجله.

ثم أضــاف في تحسر : " ها أنا جنان **السي عابد** !" تدخل **عبد المالك** مخففا

عن والده: " إذا ما أصبحت محامياً، أرد لك يا أبت كل اعتبار". استبعد **السي فاتح** ذلك : " أسـأعيش حـتى أرى ما تـدعي؟ " طمأنه ولم لا ؟".

أبدى **السي فاتح** مخاوفه، كرجل حنكته التجارب :

- أخشى أن تشـغلك عنا أنـوار الزائفة.

- أبدا ...

حاول **السي فاتح** رده إلى الواقع :

- يا بـني، إنك لو أمعنت النظر جيـدا وضعنا، لرأيت أن قريتنا هـذه، جـديرة بـأن تكـون ذات أهمية.

أضـافت **ماماس** على قوله : " أناسـها أيضا في حاجة إلى وملبس، ومسكن، وإلى الترفه". تذكر مبدأ المساواة بين البشر، فغمغم مـرة ثانية : " الناس سواسية".

وضـعت **زينة** طـاس الحليب بين والـدتها، قـالت: " هـذا كل ما احتلبت مسـاء اليوم !".

لم يتغير شـيء أبـدا في البلـدة : الطريق غـير مسـفلتة، لا تـزال النسـوة يملأن جـررهن وقـربهن الجلدية بالمـاء، لا أحد فكر في مشـروع

تزويد القرية بالماء والضوء، في حين، توجد تحت القرية، جنات وعيون جارية ! الأقسام الدراسية، تكاد تكون مهجورة. يوماً ما، سوف تغلق أبوابها نهائياً، فتصبح مأوى للكلاب الضالة. ويوماً تصبح هذه البلدة الجميلة مأوىً للخنازير البرية ومرتعاً لها وحدها، دون سائر سكان **أنامر** وسيستعدي بنو البشر تلك الحيوانات الحقيرة على إخوانهم، بواسطة تحرير عقوبات، ثم **الإنسان** تحت حكم أضعف الحيوانات التافهة.

السبب ؟ تخطيط ارتجالي لسياحة خيالية بعيدة عن أية عقلانية تضع هدفها الأول **الإنسان** في الجبل.

عوقب أبناء **أنامر** جماعية،سجنوا. صودرت كتبهم وخزائنهم، فتشت دورهم تفتيشاً دقيقاً أيام **الحماية**.

جاء **الاستقلال**، وجاء مسؤول محلي كان قد قاسى بدوره ويلات السجون، جاء على تعليم البنات والبنين، وعلى غرس صفحة الجبل الأصم باللوز... بعض الناس تأسف عدم تنفيذ الوصية، الباقون رأوا أن ذلك أحلام، أحلام رجل سلطة، بدون تخطيط للمشروع.

صدر **الكست** الأعلى مازال مشمّساً **كأنـــامر** ! تـــراه يطل على الآفـــاق واسـتعلاء ! هـؤلاء النـاس، يعيشـون بالكبريـاء والتبخـتر، يسـتمدون ذلك من طبيعة الصـخور الشاهقة المانعة، حيث تسـكن النسـور والعقبـان الـتي تحـاول عبثـاً تقليد الطـائرات المنطلقة مطـار **بنسركاو** ! فـإذا ما أعيتها الحيلـة، هـوت بأجنحتها إلى ســفح الجبــل، تبحث منفردة، تنقض عليها ! يلي ذلك اختصام واحتجاج الدجاج ...

... وانقرضت الطيـــور الجارحـــة، انقرضت حيوانات أخرى ضـارية. الخـنزير الـبري وحــده، يســود في أرض الأوليــاء والصــالحين مرقه وشـحمه، يسـيلان فـوق الصـخور. أنت تأكل لحمــه؛ فمالك وما لمرقــه؟ دعه المهم أنك لا تأكل لحمه. كان كل شيء قبل حلـول **ابـرايم أوبـرايم**[4] طـاهراً يـوحي بـالقوة والشـجاعة والمناعـة. من حق الإنسـان حينئذ يزهو، أن يحب، ويـرفض، أن يكـون مسـؤولاً،

---

[4] **- ابرايم أوبرايم : ابراهيم بن ابراهيم : لقب الخنزير الـبري في وادي أملن، هنـاك أسـطورة تقـول ابـــرايم أوبـــرايم : امش مع طريقـــك، طـريقي" ويزعمـون أنك إذا خـاطبت بها الخـنزير الـبري، فإنه لن يؤذيـك، لاعتقـادهم أن هـذا الحيـوان يسـير دائما في اتجـاه مسـتقيم مسـالما ما لم أحد.**

حقه أن يكون شيئا أو يتمنى ذلك إذا لم يمتلك سوى إنسانيته الفجة.

لم يتغير شيء هنا، وهناك، سوى الزمن يركض إلى الأمام بأحداثه، وأناسه، وعوالمه المتخيلة، في حين أن أبناء **أنامر** يركبهم وهم الكبرياء والتفوق، قد يجدون أنفسهم ذات يوم، في مؤخرة الموكب !

منذ أن وضعت **زينة** طاس الحليب يدي والدته: " هذا كل ما احتلبت اليوم، في المساء !" هاجمته أحلام ذهنية وقلبية، لو راعي غنم وبقر، يصعد إلى الجبل، يبني له هناك " عزيبا"، يمسي ويصبح مع الماشية، الكلاب، ضد الذئاب، يجني صوفاً ولبناً وافراً، فلا يمر عام، حتى تتكاثر شياهه، ضِعف ما يملك ! أين تتجه البلدة إذن ؟ **أنامر**، هي كما تركها منذ سنوات، لا تزال تسبح في أشياء توافه، غارقة في سبات عميق...

ومع ذلك، فأهلها كرماء، يحبون الضيوف، لكنهم طموحون بكيفية تتلاءم وعقلياتهم: كلهم يريد أن يمتلك جاهاً وقوة، وثقافة، فويل ينقصه شيء من ذلك! حتى التجارة ثقافة، واللهجات الأجنبية، وملك سيارة مودرن، كل ذلك نوع من "السيادة".

قاسم بن عدي واحد من أصحاب "السيادة"، أنهى تعليمه الثانوي، فحدث بينه وبين هـذا الشـيء المسـمى في عـرف المدرسي "ثقافـــة"، شـــبه قطيعة : انغمس مستودع للسيارات القديمة بمعية والـده، **البيضاء**.

ركب ظهر طمـــــوح

تمضي بضعة أعوام، حتى صار من كبار الأغنياء، أثـري ثـراء فاحشـا. أهل القرية لا حـديث لهم، عن مشـــاريعه الضـــخمة، وأرباحه والعمارات التي صارت من عداد أملاكه. عرفه **عبد المالك**، قبـل، صـفر اليـدين، لا حـول قوة ...

... ودارت دائـرة الـزمن، فلمع نجم **بن عـدي** في بلـدة **أنـامر**، كما لمعت وشموس أُخر عديدة؛ وهذه أيضا ثقافة، بـدلاً ثقافة غـرس الجبل بـاللوز، الـذي كـان المسؤول المحلي؛ وهو يعتقد عن إيمان راسخ، ووطنية قوية، أنه يـؤدي النصح إلى مواطنيـه. قد يكـون ذلك أيضا حداثة ونمـاء، بـدلاً من يكون المرء راعي غنم في جبل **الكست** !

لكنه هو، وأسـرته، لا يجـدون ما ينفقـون. حكى لصـاحبه **قاسم**، واقعه المـؤلم، والـدوافع الـتي دفعته للعـودة إلى القريـة-قبل الأوان- دون

إتمام دراساته. ولمح له مراراً، عسى أن يشفق عليه فيتولاه بعناية مالية؛ حتى وإن كانت قبيل السلف، لكن الشاب التاجر، أشد فطنة الطالب الذي يروم مهنة المحاماة، التي بعيدة المنال، فكان يجيب :

- إني أقترح؛ والحال هذه، أن تكف الدراسة، فالمال، هو مفتاح المشاكل جميعاً، وأخذ يستشهد له بتصريحات الوزراء، الأوساط الحكومية.

وقال الشاعر **بدر** مؤيداً قول **قاسم** :

- حسبي من التعليم، بعض سنوات الثانوي؛ وقد اهتديت إلى قول الشعر، القصة بالفرنسية. ثم استطرد موضحا :

- أنا لا أبحث عن ماهية الأشياء، بقدر أبحث عن كيفيتها وجماليتها، يكفيني تذوقها ! هذه أيضا ثقافة، وامتلاك؛ وبلادة الحواس، بطريقة ما.

وقال **قاسم بن عدي**، بعيداً عن التباس :

- أنا لا أبحث عن كيفيتها، ولا بتاتاً، إني أريد الجمع.

توقف قليلا؛ وقد لوى قبضته، ثم بعزم ماض :

- هنا مكمن الجمال ! ما أجمل أن يجمع المـرء الطوابع أو حـاملات المفـاتيح !... أما يتأمل شيئاً واحداً؛ فذاك لعمري، ضياع للوقت !

هـذه أيضا ثقافـة، وإيهـام بالسـير الأمام.

ودون أن ينتظر أحد جوابـه،

المالك :

- كل الأشياء في حاجة إلى نظام.

ذهب كلامه في الهبـاء... ودخلت في سـديم. إلا أن في هـذا الـوادي الـذي بالمداشر في رفـق، كأنه حـزام غـادة المحاسـن، جمالية تفـرض وجودها على الأجـواء، على أطـراف هـذه الأرض الممتـدة في هضاب متواصلة من الشرق حتى الغرب. تتمثل هـذه الجمالية في اللامـرئي، وفي اللامحسـوس؛ وحـتى في الألـوان القرمزيـة، في تمايل أشـجار الدفلى، تنحـني في جنبـات الـوادي لتتأمل حبـات لؤلؤية من الحصـى. هل تحتـاج هـذه الجميلة، والأفكار المنبثقة عنها إلى نظام؟

أنين شاحنة نقل الإسمنت وأكوام الرمل، تعاند عقبة طريق **أنيل**، ساحة الحوض : قناطر من البشاعة والرتابة والملل، ستحل قريباً محل هذه البنايات والأبـراج الحمراء.

لم تعد البلدة تشبه أهلها، ولم يعودوا يشبهونها على ما يوحي به شكل وطريقة المحادثة، ونمط العيش، لكن مازال الناس يشبهون أديم البلدة، طالما أنهم يحرثون، يزرعون، يضحكون، يترنمون في بساطة؛ يهشون إلى الغريب، يكرمون وفادته، يسألونه عن الحال، أو يلتمسون يستجيرهم فيجيرونه، يستعطيهم فيعطونه. أرض ورثها عباد الله الصالحون، كانت عبارة أدغال، تسكنها وحوش ضارية. ومع ذلك، كانت تندلع فيها صراعات بين القوم الصالحين والطالحين : سكان هضبة هذا الجبل، والقرى المقابلة، حسب الأثرة القبلية.

يروي بعض شيوخ القرية، أن **أنامر،** تكن موجودة في موقعها الحالي، لأنها لم تتكون بعد. هذه بداهة. قيل إن الدوار، كان يبتدئ تحت **أزمز** متراماً من منحدرات **أوزموتن**. ويبدو من خلال الرواية أن **أنامر** القديم، ازدهر لوجوده في **أوزموتن** أو قريباً منها. ثم إنه حدث في مناسبة أحد الأعراس جماعة من **العآمت**، وسفهاء البلدة، فربطوا غصناً من أركان مدهوناً بزيت، مع نسر، فلما كان **أحواش** ليلاً، أطلقوه محلقاً من شاهق. لما شاهدته نساء القرى المجاورة، أجهض بعضهن.

أما الرجال، فقد اندهشوا بدورهم من تلك الظـاهرة. في الغـد، لتلك الليلـة، سـألوا سـكان البلدة عن الظاهرة الغريبة التي حدثت في الليل. لكن سـكان البلـدة سـخروا منهم : " ذلك مجـرد ألاعيب **العآمت** المدهشة".

ومن ثم، بيت سكان القرى المجاورة أمر غـزوهم وتـرحيلهم، وإحـراق دورهم عقابـاً اندثرت البلدة، ثم جاء الشرفاء بالإضافة إلى سـاكنة أخـرى، كونـوا بـأجمعهم مجمعـاً سـكنياً، فأسســوا **أنــامر** على مــاهي عليه الآن.

الأمر من قبل، ومن بعد...

ثم إن تلك الأدغــال المســكونة بــوحش ضار، أخذت تتحول إلى جنـات من نخيل وأعنـاب، وزيتــون، وأزمــور، بفضل كد واجتهــاد الســاكنة الجــدد. إلا أن الوحــوش المفترســة، كــانت صراع مع **الإنسان** إلى زمن قريب. وقد ظهـرت دويبة يقــال لها **"ويــرزان"-** آكلة والأقدام الآدمية- وكان من شأن هذا الوحش أن يتسـلق سـطوح الـدور، فيعمد إلى أكل أعقـاب الآدميين النائمين فوقها لشدة الحـر، أو يبحث حظيرة الأبقار عن ضحاياه، فيلتهم ضروعها. ذلك ديدنــه، حــتى قضي عليه بالأحاييـل، والشـبكات، وقتل تقتيلاً حتى اندثر نوعه، وذهب أثره.

يا ويرزان، انبعث من رمادك وحشاً ضارياً، كل ضروع الخنازير البريةً !

يا ويـــرزان، طهر أرض الإســلام، الأولياء، **أرض العارفين بالله، المتـبرك أحياء وأمواتاً** !

طهرها من عبث الخنـــازير، للبقول والمزروعات !

يا ويـــرزان، أنـــزل عليها صـــاعقة السـماء، أقصم ظهورها واسـلخ جلودهـا، دماءها !

وفيما كان سارحاً في مثل هـذه الأفكـار، وضعت أمه بين يده طبق عصيد من الـدرة، من اللبن، بينما انهمك والده في معالجة طبخ الشاي، ثم جلست أخته بجانبه، وشرعوا يتناولون عشاءهم...

4

لبست القرية في ذلك اليوم حلة قشيبة، فكل فتاة قد تـأزرت، وعقـدت حـول جيـدها من فضة، وسلاسل مرصعة بالأحجار، وخماراً مزركشـــاً. زينت المعاصم بأســـاور مرصعة، فتبادرت كل واحدة في أن تبدو خيراً من الأخرى.

اختلطت أصــواتهن مع نحيب العــروس، وصــراخها. وكـانت هـذه الأخـيرة قد حـدقت وصيفاتها من كل جانب، فبدت وسـطهن، ملفوفة في ثوبها الأبيض، على رأســها خمــار العــروس. كانت لا تـزال تستسـمح أهل القريـة، نادبة الذي أخرجها من بيت والديها إلى بيت الزوج.

علت أصوات الصبية في الجو. خرجت النسـاء لمصـاحبة المـوكب، بينما اغتنم الفرصـة، شبان اندمجوا مع الموكب يحمونـه. انـدمج معهم تلقائياً، بعد أن علم أن المـوكب يسـير إلى حيث دار العريس.

سـمع بعض الطلبة يتسـاءلون البكـاء؛ ونحن في عـرس؟" ليجيبه الثـاني سمعت بالنادرة التي يتداولونها من أن واحدة قد زفت إلى زوجهـا، فبكت طـوال الطريـق، أحد الظرفاء : عليكم بإرجاع العروس إلى بيت والدها؛ فلا إكراه في الـزواج، فنطقت العـروس- على غير العادة- فقالت : " معذرة، فهـذه عـادة، ومن هي تلك التي لا تحب بيت زوجها؟" وبطبيعة الحال، كفت عن البكاء !".

قـال صـاحبه : " ما أجـدرنا اليوم !"

سـمع أشـياء كثـيرة من نـوادر العـرس والعرسان، سـمع عن تلك العـروس الـتي هـربت يوم عرسـها، فـركبت الحافلة إلى عشـيقها تاركة العـريس وأهله في حـيرة، فكـانت النتيجة الأمـر، فسخ القـران حفاظـاً على العريس، وحفاظاً على رغبة العروس ضمنياً. مازال كل شيء في يد الذكر الفحل هنـا، فعنـدما يتزوج، يصبح **مولاي** أثنـاء مجيء العـروس. تلك

نعمة كان يفتقدها الذكر، وسيادة، ما كانت تخطر على بال، لولا العروس !

التفت بعفوية، فرأى صاحبة الحذاء المفقود، يغازلها شابان على مرأى ومسمع الجميع، شعر بوخز الغيرة. أيقن أن التعرف قد يورطه فيما لا تحمد عقباه. قفل راجعا إلى العين.

هل كان **ويرزان** يحب حقا متورطا في عشق ليلي، أم كان يكتفي بلحس حلمات الضروع، ثم يقضم عليها بأسنان حادة، فيلتهمها، كما يُلتهم الزبادي ؟

لقد حطمه قوام تلك الفتاة مذ رآها **تادينارت**؛ صار عيباً أمام خيالها، مجنوناً أمام شخصها ورسمها، وهو الذي درس فصاحة العرب وآدابهم، وما نقلوه عن **أرسطو**.

لكن... ماذا تجديه الفصاحة أمامها؛ بل ما تجديه عشرون لغة، لو فاهت بكلمة واحدة، بها مصيره، أو تتركه في غيه، يتخبط في ظلام الطريق ؟

هاهو ينزل إلى هوة سحيقة لا قرار إلى طريق أفعواني، حلزوني دقيق، يصعب الخروج منه إطلاقا. ومع ذلك، فهو راض بذلك العذاب. هل كان **ويرزان** راضياً عندما وقع

أحابيل الأهالي؟ هل أنسته شهوته، وحاجته إلى الطعام، عذاب الأسر؟

أي شـــيء أبرمه معها ؟

أسرته بسحر من القول، وقبلة خفيفة، وأسئلة تـوهم بـالحب، بينما تـنزل به درجـات القيم، العالم السفلي، إلى لغة الجسد المتهور.

وهاهي تتنكر أمـام عينيه لتلك القيم الـتي أوهمته أنها تتمسك بهـــا، وتبعـــده والواقع، تتجاهله، لتجعله على طرفي نقيض مع نفســه، ومنطقــه، وفلسـفته، تعـود به كالطفـل، القهقــرى، إلى اللامعـنى. قـال له **بن عـدي** المـــال، مفتـــاح كل شـــيء" بل في يـــدها المفاتيح.

ينسى نفسه، والعرس، وأخته **زينة** اندمجت مع موكب العروس، لم يعد يفكر إلا في صاحبة الحذاء.

" المال مفتاح كل شيء !"

" تعــال يا **ابن عــدي** وادخل من الذي دخلت منه أنا، إلى قلبها، إن كنت من الفاتحين !"

ألا فلـــيرم صـــاحبه ماله في اليم، الحيتان أن كان يسوغ في حلوقها !

الحب، هو الإيمــان بالنصــر، مهما الأحوال والظروف، ذلك الطفل، الملاك الصغير

المجنح، الذي يرمي القلوب بسهمه، فتسبح في اللامنطق، في اللامعقول، في الجنـون، تسـبح أجنحة خفاقة. بصوت الحبيب تهتف، تواقة لروحه تعانق.

هل يدرك **بن عـدي** هـذه القيمة ؟ لا...

لقد مضى دهر على تورطه غرام لا مثيل له؛ وهـو، لو اسـتطاع، أن يلثم صـاحبته بعد التنكر المفتعـل، إذن، لظفر بنصـيب عظيم، ولظهـرت له مكـامن الحيوية في الأشـياء المحيطة به. بضعة أيام، تصبح دهراً !

لو ظفر براحتهـــا، لنطق **الكست** ولســـمع منه حـــوار التهـــانئ، يـــتردد بين الصخور !! أية رقة تحملها صاحبته !

تـرى، أتكن له من الإجلال والتعظيم، ما يحتفظ به بين جوانحه؟

امتهنه **الـــدهر**، وقص جناحـــه؛ ودون يخشى ملامـــاً، ألبسه لبـــاس الأذلاء، أهل الجياع، وما ابتسامته لأهل بلدته، إلا ضمادة تخفي " جرحه" !

تعذب كثيراً، وكأنما أحد لا يحس بعذابه.

ومع ذلك، لا يزال يبتسم للناس.

نعم، هـؤلاء الـذين يمكن أن تتقبلهم علاتهم دائمـــا، فـــإنهم كـــالنقود، لا تكـــاد

الحقيقي منهم والزائف، إلا بعد طول مراس، وبعد سبر أغوارهم !

يبتسم لهم، حـــتى لا تظهر عليه القهر والخذلان...

يبتسم لهم، حـــتى لا تجعله هـــذه كالدرهم الزائف بينهم.

ما هذا التناقض ؟

وكأنه التمس لنفسه عذراً فتمتم :

" حـــــتى لا تنفتح في (حقـــــه)، الشامتين شفاة الغليل".

خلع ثيابه، وانغمس في قعر **الغدير**...

5

بالأمس، في حفلة العرس، أذلته أيما إذلال. هل كـان لقاؤهما عبثـاً وعفو السـاعة أذلتـه، لم تكـترث بـه، كـان شـابان يغازلانها مرأى ومسمع من الجميع.

أي عيب في ذلـك؟ لـولا أن لسـانه خانـه، لم يسـتطع بما أوتي من جـرأة مشـاركة الجميـع، فغادر الحفل مهزوماً مهيض الجناح !

وكان قد شعر بتفاهته، متخذاً طريقه نحو **العين**، من منعطف **أنيل** : الطريق وعـر، لا قبل له بـه، شـعر بلسـعات والشمس، تمر على خديه.

لاشيء تغير في البلدة.

خليق به أن يلتمس ظلاً ظليلاً، فاتخذ جلسـته منفـرداً تحت شـجرة وارفـة، لم أكانت كرمة، أم شجرة دفلى، أم شجرة بطم، أم خروبة ...

ظلت الفتيـات... يملأن جـررهن، واحـدة تلو أخرى، حينما عـاد لليـوم الثـاني إلى هـذا

الصافي يصغي إلى خريره، يتأمل مياهه الشفافة في ظل النخيل...

وظل هكذا، حتى لاحت له أخيراً منشقة بين الأشجار، كعروس من عرائس البحر.

بدت له؛ وهي تقترب من العين، صافية النفس، غير مكدرة البال، خلافه؛ فقال لنفسه لماذا لا يهش للقائها، والنفوس الصافية، سريعة التواصل ؟ قام وسار حتى كان على مقربة ليجد نفسه يتمتم باسمها : " **تعزة** !**تعزة** **تعزة** !" هكذا، ثلاث مرات. في المرة الأولى، كان صوته ضعيفاً، غير واضح المخارج. وفي الثانية، أخذ يتضح إلى أن قال : " **تعزة** ! لا إن كلمتك في مطلب هام. نسي كل شيء أمامها، عدا اسمها الذي أخبرته به أخته **زينة**. قاطعته بضحكة عالية متسائلة" حقاً، أين كنت يوم العرس؟ وفي مسكنة وخنوع : جئت إلى هذا النبع أتأمل الطبيعة". وحتى تؤكد له اهتمامها : " سألت عنك أختك، ألم تخبرك؟".

كان قبل لقاء **تادينارت**، لا يأبه إلا ببعض الأشياء المحيطة به، يتعامل مع الإنسان بشكل مطلق في هذا الجزء الجنوبي. عبر اهتمامه بدوره : " بلى، فهي التي أخبرتني باسمك عندما سألتها، فنطقت به". ابتسمت

"الحمد **لله** !" ثم أضافت " أما أنت فقد سبقك اسمك".

هــذه القرية تحفل بالأســماء والنعــوت، تنزل الأسـماء رنانة في الآذان المرهفـة، تسـبقها هيئة المسمى. وربما كان لها وقـع، قبل أن على شخصية معينة، لتقلصها في دائرة معينة بين أسماء البشر. المفارقة، أن المسافة الـتي كـانت تفصله عنها؛ وهو على مقربة منها، كانت تبدو شاسعة، كلما اقترب؛ ففي الاقتراب، ابتعاد، وفي الابتعـاد، اقـتراب، وفي الحلـول توحد بعد معانـاة الاحـتراق حلت في كل شـيء، في كـروم العنب، في الدفلى، في النخلة المستقيمة والراكعـة، بسمة الورود، في حجارة الوادي، في هبة النسيم :

هيلين تلك أتت تزف نداءها

طغيان فتنتها سنًى وسناءُ !

ربما تعـرف عنه كل شـيء. أما هـو؛ في مقام تهجي اسـمها بحروفـه. ذلك هو أصـعب المقامات.

6

اختفت الشمس وراء جبل **أياي** تاركة وراءها ذيولاً انعكست على أحجـار **الكست** أرياش طواويس زاهية، ولا تلبث هـذه الألـوان تنسـحب شـيئاً فشـيئاً، فلا تـترك في الآفـاق حمــرة خفيفــة، كلمسة أخــيرة في لوحة ماهر !

ثم ما مضى إلا هنيهة من الــزمن، زحفت عليها طوابــير الظلام، فأمست **أنامر**

خضم سواد دامس، لا يقل شاعرية وجمالاً عن روعة الأصيل : كون هادئ وديع، تسبح بتقاطيعه، في طرب صوفي، ضفادع حوض القرية، إلى يقطعه عواء ذئب كاسر، يتردد صداه في الأرجاء، فيحسبه السامع، ذئابا جائعة مقبلة على القرية؛ حتى إذا ما أرهف السمع، تبين له أنه ذئب ليس إلا... ثم يتواصل العـــــــــ القرويـــون أنها معركة حامية بين شرسة. بعد العشاء، آوى الكبار إلى مضاجعهم، إلا ثلة يعدون أنفسهم من **العـآمت**. فما هؤلاء من تناول الطعام، حتى تسللوا إلى دار سيدي الفاهم؛ فهي دار؛ ولا دار مثلها. فمن حيث الشكل، لا فرق بينها وبين عشرات المتناثرة على هضبة **الكست** في **أنامر**. والظاهر، أنها تمتاز عن بقية الدور، لكونها ملتقى لعدة أبطال **ألف ليلة وليلة**. لياليها أغرب الخيال، تذكر فيها مغامرات **السندباد**؛ فلا **سيدي الفاهم** يفرغ من باب من أبواب **ألف ليلة وليلة**، حتى يعمد إلى الرحالة، يروي مغامراته البرية والبحرية، في تشوق، بعد تصرف بطبيعة الحال، من عندياته.

كان **عبد المالك**، واحداً من تسللوا بدورهم إلى تلك الدار، هروباً الهواجس وترفيهاً عن النفس.

لما كان على الباب، سلم ورد عليه السلام، صوت انتهى صاحبه من إيقاد سراج **لافاكوم**، ثم زاد مرحباً، لما رآه وعرفه :

- ٱدخلوها بسلام !

دخل بعد خلع حذائه مبسملاً، **قاسم بن عدي** عاكفاً على جهاز ترانزيستور، يعالج أمواجه، باحثاً عن الطرب الشلحي. كانت الغرفة غاصة بالمتسامرين. ودون أن يكترث هو، بأحد منهم، راح واتخذ له مكاناً جلس فيه، يراقب منه الغرفة في منظر عام.

ساد المكان سكون قطعه **سيدي الفاهم** بنحنحة ندت عنه، تنم عن سلطة مطلقة على "البيت"ـ وأتباعه، نادى على الخادم **بورون** :

- غلام ! هات الطاس.

انبرى شاب صحراوي أسمر الحاضرين، يسكب على أيديهم تباعاً، الماء، صاحب البيت عاد، وصاح به :

- يا لك من غلام غبي ! تعال إليّْ !

وجره في حركة مسرحية لا تخفى ذوي الألباب :

- ألم أقل لك : ثلاثة- دائما- تدار اليمين ؟ !

تصنع الشاب الخوف، ثم أجاب بعد تردد :

- بلى.
- وماهي ؟
قال في تلعثم مصطنع :
- الكأس، والطاس، والطيب.
- يا لك من غلام الخصال !
قال أحد الحاضرين؛ وهو **بوهو** :
- وما هذه الخصـال، يا **سيدنا الفـاهم** حتى نتجنبها عافاك **الله** ؟
- أولها، النوم، ثانيها، البخل...
ثم سكت.
عاد بوهو يلح عليه :
- والثالثة ؟
- السهو، وقلة البال، رغم تيسير الأحوال.
- صدقت **سيدنا الفـاهم** ! قـال **بوهو** في تزكية كاذبة، ثم راح يشرح للحاضرين خصـال **بورون** المذمومة : " فأما النوم، فإن صـاحبنا، يحلو له النوم، إلا أثنـاء السـمر، رغم ما تناوله أقــراص " الأورتيــدرين". وأما البخــل؛ فأجرته تــرى الشــمس، بل ترسل رأســاً إلى رأسه، لبناء قصر باهظ التكاليف في ... الصحراء !".
ضجت القاعة بالضحك. رمق **بورون** عم **بوهو**، بنظــرة عاتبــة. إلا أن **بوهو** أضــاف

كلامه، دون أن يكترث بنظرة **بورون** : "... وأما قلة باله، فقد رأينا فيه ما ترون الآن ..."

هل وجد الترفيه الـذي ينشـده **سـيدي الفـاهم**؟ ما ظهر لـه، هنـاك، إلا للتصحيف والتحريف.

انبرى العضو الجديد يسائل **بورون** :

- وأنت يا **بورون**، ما رأيك ؟

- الرأي- إذا كان ذلك صحيحاً- ما ترون !

ثم عاد **بوهو** يستدرك في لهجة مسرحية مراعاة للعضو الجديد الذي قدم لبضـعة أيـام **الدار البيضاء** :

- العفو، أستاذ !

رفع رأسه إلى **بورون**، آمراً :

- أتمم ما أنت فيه يا غلام.

كـان **بوهو**، يتمتع ببنية قوية الخمسـين، إلا أن وجهه مكسو بتجاعيد كأنه كتاب سطرت فيه مراحل تاريخ الرجل : منذ أن سافر من قرية **أنامر**، سعياً في طلب الرزق، إلى **القـنيطرة**. بيد أن الحظ لم يواتـه. كـانت سنه دون الخامسة عشرة... وكان؛ وهو على تلك الحال، ينتقل من مدينة إلى أخـرى حـتى انتهى المطاف إلى **الدار البيضاء**، وهي عهد ذاك، قليلة البنيان، باستثناء سور المدينة، وبعض الـدور

القريبة من الميناء... أما ما عدا ذلك، فعراء، ومروج، وبرك، ومستنقعات !

اتصل بسيدة فرنسية، تدير ملهى للترفيه عن جنود الاحتلال الفرنسيين.

وبدأ عمله، غلام مطعم...

لم يلفت نظره في المقهى إلا الطرب !

ولما كانت صاحبة الملهى ذات حساسية قوية نحو **المغاربة** على الخصوص، فقد أشارت عليه بالسفر إلى **باريس**، قصد تنمية مواهبه في العزف على الكمان، فتناولت يد الفتى الشاب، الآلات الموسيقية، ولكنه ما استقر على واحدة...

وبعد أن أعياه الطواف في الأوروبية، اتصل بسيرك. ولما قارب العشرين، انخرط في الجيش الفرنسي؛ **بالجزائر**، ثم **تونس**، وأخيراً، **سوريا**. ولما تحرر **الشام** من سيطرة الفرنسيين، أعيد باريس، ضمن الفرقة الأجنبية.

ولكنه ما استقر على حال واحدة، تزوج بفرنسية، عله يجد في أحضانها مستقراً. ثم أنجب أطفالاً كان يسميهم هو، **علي** فتسميهم هي، **جآن**، على حد تعبيره.

عاد مرة أخرى إلى السيرك يجرب حظه، ولكن السيرك استغنى عنه، لأن عمله المرهق في الجيش، انتزع منه " خفته !"

... ولسبب ما، تخاصم الزوجان، انضم أبناؤه العرب الثلاثة إلى أمهم الإفرنجية، فسموا نهائياً بأسماء الإفرنج.

عاد إلى وطنه المهجور، يعض بنانه كهلاً، لا عمل له، ولا قوة. تتحدث القرية عن مواهبه، واللهجات الأوروبية التي يحسنها. حدث يوما قدم (**الرايس**)- المطرب الشعبي- إلى أ**نامر** فتحلق حوله الأهالي، وكان هو بين الحاضرين. وما أن تمكن منه الطرب، حتى (**الرايس**)، أشار إلى الرباب، قائلاً :

- أتسمح ؟

ظل (**الرايس**) فاغراً فاه، غير أنه إليه ربابه، عن قلق وانزعاج تخفيهما ابتسامة صبورة. وما أن تمكن من الرباب، حتى فاستهل أهزوجة شامية، يتابعها بأنغام على الرباب :

... ...

... ...

... ...

سايره الحاضرون تصفيقاً بالأيدي طرب عربي أصيل، فاضطر (**الرايس**) بدوره،

أن يسايرهم هو وجوقه. علق بعض من شاهد هـــذه الواقعة : " إنه موســـوعة عالمية !" وقال آخرون : " إنه سندباد الجبلى".

وكأنما عودته إلى بلدته بصـــفة بنت قـرار حاسـم، فقد قطع صـلته ببلاد الغربـة. ولئن غنى أهـازيج شـامية، أو تحـدث بلسـان لسان بلده، فما ذلك، إلا للاستعلاء على بني جلدته. اشتد جـدال بينه وبين أحد المثقفين حول موقع إسبانيا، بالنسبة **للمغرب**، فبينما يؤكد الشـــاب، أنها تقع في **المغــرب**، يفصل بينها وبين المغــرب، **مضــيق جبل طـــارق**، يصر هـــو، **الصحراء**، جنوب **المغرب**.

يعمد الشـــاب عبثـــاً إلى **المغرب وإسبانيا**، وموقع كليهما على الكرة الأرضية، فيزجره، قائلاً في حنق :

- دع عنك هــذه الصــبيانيات، خــاطبني بالحقائق والواقع.

- ولكن ...

صاح به في غضب كأنه ملقن :

- قل لي هل زرت **إسبانيا** ؟

- لا. يقول الشاب في وداعة.

- إذن، فمالك تجادل فيما ليس لك به علم ؟ هل **من رأى كمن سمع** ؟

بهت الشاب. أما **بوهو**، فقد استرسل :

- ألم تسمع بما قال الأولون : (حرام تسلم على غير المغترب).

وكالعادة، في كل ليلة، انبرى الحاضرين في غرفة السمر، فغمز الشاب على علم **بوهو**، درءاً لما لا تحمد عقباه. كان ذلك عندما بلغت الدراما عقدة تتطلب حلاً سواء كان معقولاً أو غير معقول. فليكن طريفاً على الأقل، مدعوماً بالمثل السائر !

بعد مضي شهور، تزوج شابة ذات جمال وخفة ودهاء. فلأمر ما، بارت **تاهرة**... ومع ذلك، كانت لغزا. فحين زفت إليه، كانت تطل الثلاثين.

وعوض أن تلوك الألسنة سمعتها، عادة المتزوجات حديثاً، راحت هي تدوس خصومها، نساءً كانوا أم رجالاً. قلما ينجو لسانها أحد، لاسيما من يشملهم غضبها.

أما الزوج البهلواني الجندي، الذي خبر النساء في **أوربا**، وفي **الشرق؛** فقد " **طبقة**". راحت **تاهرة**، في كل نزاع تعاركه، تبادله الصاع صاعين، حتى لانت عريكته. لا لهما إلا الخروج ليلاً، ليجمعا ما تساقط من لوز وزيت، وغير ذلك، من نتاج الفلاحين. فويل

شكا ! فقد عرض نفسه لجراحات اللسان. وقلما تلتئم "جراحات اللسان"، كما يقال !

ما لبثا، أن أخذ كلاهما عن الآخر، أصبحا ذاتاً متحدة، يربط بينهما رباط خاص، ووحدة الهدف. فإن اختصما، حمل كلاهما أمتعته؛ فلا يمضي إلا قليل من الزمن، حتى يعودا كانا عليه من صفاء الود، والوئام، فخصامهما، (سحابة صيف تقشع)، ليس إلا حالة عرضية.

باختصار، كانا لصين ظريفين ! ولا يجرؤ أحد مع ذلك، أن يواجههما الظلام !

وعُرف بين القرويين، بأنه شخصية فذة، يتقن عدة صناعات وحرف، دون أن يتعلق قلبه بواحدة منها، أو كما قال عنه **الفاهم** يوماً لجلسائه : **"سبع صنايع والرزق ضايع"**. قيل إنه يتقن سبعة ألسن، ولم يبق من لغات الدنيا، إلا زقزقات الطيور، وقيل يعرف أحلام الحيوانات ورغائبها سابقاً في السيرك، فاستدلوا على ذلك بكونه خاطب يوماً حماره؛ وقد خرج به إلى المرعى : " إذا لم يعجبك هذا العشب- مشيراً إلى المرعى- فإني أحتفظ لك بقنطار من التبن اليابس". وبعد مضي ساعات، شوهد الحمار أمام بابه، ثم إليه يتلقاه، وهو يغمغم :

- أتذمرت من العشب الطري ؟

ودخلت الدابة حظيرة البهائم !

ومما عــرف عنه أيضا أنه مولع بالتــدخين والشاي، والقهوة، فكـان يـدخن سـيجارتين دفعة واحــدة: يضع إحــداهما في زاوية فمه والأخرى في الزاوية اليسرى. إلا أن زوجته حاربت فيه تلك العـادة، وقاومتها مقاومة عنيفـة، فأصبح يدخن سيجارة واحدة، أي أنه يـدخن ما كان يدخن في سابق عهده. فهو، من النوع الذي لا يرد سيجارة أو كأساً عن أحد. أما فقد قطع صلته بها منذ أن وطئت قدماه أرض الــوطن، فطلقها طلاقــاً لا رجعة فيــه. فكــان منطقياً مع نفسه، فقد حل **بأرض الإســلام** غربة في **أرض الله** الواسـعة. كـان يسـمي الفترة المنصرمة من حياته، تيهـاً. أما لسـانه، تفارقه النكتة أبــداً، فهو نابغة فيهــا، غبار ! وقد يتخذ أحياناً **بورون**، إذا أعيته الحيلـة، ونضبت الملكة، أداة للتشخيص، وإجراء النوادر.

شرب الجماعة الكأس الأولى من الشاي؛ وقد تسمروا بمختلف أنواع الحكايـات، يتصـدرهم **سيدي الفـاهم**. ما أشد شـوق الجماعة زيـارة الأمـاكن الـتي زارها السـندبادان : الـبري والبحري ! وهم؛ والحال هذه، مأخوذون بتأكيدات البهلوان العجوز. وهل الخبر كالعيان ؟ !

وراح **بورون** كالعادة يفرق الكؤوس على الحضور، ويجمعها متثاقلاً، يتصنع الغفلـة. أما **المالك**؛ وإن ولج لأول مرة غرفة **سيدي الفاهم**، التي سمع عن نوادرها الكثير، فكان من الذين اقتنعوا أنه لا ينبغي إلقاء البال إلى كثير من هـــذه الصـــبيانيات. في تلك الأثنـــاء، دخل يرتـدي معطفـاً أسـود، يتقـدم بخطى حثيثة مكانه الخـــــالي بين الجلســـــاء، الحاضرون، حتى صاحوا بلسان واحـد، فانتبه **المالك** ليجد نفسه، يرفع صوته بدوره، مضطراً أن يسـايرهم، ويـرحب معهم بالرجل : " إذا المساء، أتى الرجل القديم العهد بالسكر !" ابتسم الرجل المنحـــني الظهـــر، رغم البادي عليه. وفي تلك اللحظة؛ خرج **بوهو** معلناً انتهـــاء ســـهرته مع الجماعة من طـــرف ودعهم : " إلى مثل هذا الوقت من مسـاء الغـد". قـالت الجماعة بصـوت واحد : " مع السـلامة **بوهو** !". بينما أخذ الرجل مكانه المخصص أمام الباب، ثم ما لبث أن أخرج من جيب معطفه بعد أن اطمـــأن، زجاجة من " الـــروج"، أمامه بحذر. أخرج الكـأس من الجيب الثـاني، همهم : " رفقاً بها، **قد بلغ السيل الزبى** !".

كـــان **أبا الحـــبيب**، لين العـــراك، كالحمل، كثير التصديق، هادئاً، لا يتكلم إلا عند

الحاجة، لأنه مستغرق في خواطر الكأس، أو بعبارة أخرى، خواطره هو، وهمومه.

في أول أمـره، كـان موظفـاً **بالبريد** وحـــدث أن اســـتولى على مبلغ العمومية، فحوكم عليه " **محاكمة تأديبية**"، و"حوسب حساباً عسيراً"، ثم طرد نهائيـاً. ولكن، عز عليه أن يعمل في غير **الوظيفة العمومية.** ولما كـان كثـير اللهـو، عاشـقاً للنسـاء، مقتفيـاً آثارهن؛ راح يرتوي من الملاذ والمسرات، عرض الحائط، بمسؤولية إيجاد " عمل لائق" له.

ويروى أنه تبع عشيقة له، رغم علم زوجته بذلك، من **تيزنيت** إلى **مراكش**، ثم انتقلت إلى **البيضـــاء**، فانتقل معهـــا. ولما كـــانت المطربـات، وكـان هو مفلسـاً، تلطفت لـه، حـتى تخلصت منه بدهاء. ولما بدا له ما آل إليه، اهتزت نفسه هـــزة عنيفـــة، فعـــاقر الخمر في الكبـيرة، وجـالس كثـيراً من النـدامى، شـكا كما استمع إلى شكاويهم، ثم رجع إلى **أنامر**، إلى زوجته.

زجر على " الشــرب"، تــدخل الكثــيرون للحيلولة بينه وبين "بنت الكرمـــة"، الجهود سدى..." هيهـات أن يسـتقيم المـدمنون، ويعودوا إلى فطرتهم الأولى !!" هكذا كان أقاربه، ويتحسرون...

بعد أن سأله السامرون عن أحواله، شكرهم، ثم خلا إلى الزجاجة يسكب الخمـرة كأسه، وهمس : (اليوم خمر، وغداً أمر).

جـرع الكـأس دفعة واحـدة؛ وهو يسـدل جفنيه.

تأمله **عبد المالك** عن كثب، نفسه : " يهـرب من واقعـه، إلى الكـأس، ثم إغماض الجفون" كما يهـرب هو أيضا من واقعـه؛ من فقر والــده؛ وحب الفتــاة صــاحبة المفقود؛ إلى دار **سيدي الفاهم**.

عاتب الرجل قائلاً :

- ما هذا يا **أبا الحبيب** ؟

رد عليه تلقائياً كأنه لقن الرد منذ زمان :

- (عرضي وافر لم يكلم)

رد **بورون**، بفضول :

- بل هو في الحضيض الأسفل

وكي يغلق عليه **أبا الحـبيب** كل الأبـواب قال :

- " **للضرورة أحكام**".

هو ذاك الرجل الــذي يبــدو أن يكرهه كراهة لا توصف.

سـأله **سـيدي الفـاهم** يومـاً عن سـبب كراهته إياه، فعلل ذلك بأنفاسه الكريهة، إذ من فيه رائحة الخمر. وكان **بورون** كاذباً.

تثاءب **قاسم بن عدي**، ثم قام يودع المتسامرين. ما كاد يمر أمـام **أبا الحبيب** حذره هذا الأخير، واضعاً يده على الزجاجة : " رفقـاً بها ... **قد بلغ السـيل الـزبى** الباب، نظر إلى الرجل شزراً. أما هـو، فقـام ذاك، يتبع **قاسم بن عـدي**، ليـودع بـدوره السمار، ولتنتهي سهرته معهم.

تسلل الرفاق واحداً تلو آخر...

رفع **سـيدي الفـاهم** رأسه عن **ألف ليلة وليلة**. لم يبق في الغرفة إلا ثلاثة : **بورو**ن يغط في نوم عميق؛ وقد طغت موسيقى شـخيره على أرجـاء الغرفـة، يتبعها نخـير منكـر، ينبعث من أنف كفـارى ! وبـدا الجسم النحاسي كبغل منهوك، بعد كد يوم من العمـل، في **أنامر**، لقاء ألف فرنك ! لقد كان إلى ما قبل قليل، يحرك طـرفي أنفـه، إذا ما علته سـورة غضب، أو مسه ضيم، أو خاف.

وهـاهو قد هـدأ، إلا من نخـير متواصلين، كنقنقة ضـفادع حـوض القريـة ! وضع الكتـاب في الـرف، ثم اتجه إلى النافـذة، مصـراعيها، فاصـطدم بأنفـاس صـبح زكيـة، المصـراعين برفـق، ثم تحـول إلى أبا الحـبيب، الشخص الثاني؛ وهو لا يزال مستغرقاً في تأملاته الخمرية، قال يخاطبه :

- سبحان الله **يا حبيب** !

- العفو " **سيدنا**" !

تثاءب، وبعد تردد قصير، قال :

- الجيوش تقتحم الباب !

- جيوش من ؟

رد عليه في تذمر :

- جيـــوش من ؟ جيـــوش **هرقل** سهام الضوء تطرد جحافل الليل يا غافل.

- إذن ؟ قال في تراخ.

- إذن، " **فلما أتى الصـــباح، ســكتت شـهرزاد عن الكلام المبـاح** !". وأتى بكتـاب **ألف ليلة وليلة**، فقربه من عينيـــه، انتهاء السمر، كما انتهت إحدى ليالي الكتاب. عند ذاك، قام يتخبط مترنحـاً معربـداً، يتلمس طريقه في خضم سكر ثقيل، رغم بزوغ نور الفجر.

7

مضى شهران على إقامته بين الأنامريين :
فـترة الصـباح يقضـيها مع الـزملاء الطلاب الـذين بــدأوا يتوافــدون على القريــة، يســبح معهم العين؛ ثم بعد الغداء، يقيل.

وفي الأصــيل، يهبط منحــدرات الواحــة، صوب **تادينارت**، عله يرى صـاحبته. لكن في آن، لم يرها إلا مشغولة عنه بصـواحبها. اشـتعلت في نفسه اللوعة متقدة. ازداد شـوقاً إليهـا، ازدادت عنه تجاهلاً وتغافلاً؛ فلا هي كانت معه، ولا كانت عليه.

وفي المساء، يقضي سهرته بدار **سيدي الفاهم**.

تناول فطوره؛ وقد تنبه إلى الصـينية كانت **زينة** قد وضعتها بين يديه منذ ربع ساعة !

هبط المنحـدر، واسـتدار يمينـاً تلفه **أنامر** الملتوية، كأنها مسالك مدينة أثرية من القرون الوسطى.

ومــاهي إلا هنيهــة، حــتى اقــترب معصرة !

تلقاه صاحبها على الباب هاشاً باشاً. أمره بالدخول : رحى حجرية ضخمة، قطرها لا مترين، ركبت على قاعدة حجرية، بدت له عجلة يمسكها محور خشـبي ملتصق بعمـود مثبت نفس القاعدة الحجرية، ومتعامد مع آخر، إلى داخل غرفة الاستخراج.

واســتمر الثــور المعصب العيــنين ويدور، جاراً المحور الخشبي؛ وجعجعة الرحى الحجرية: كغن ! كغن ! كغن ! تصك الآذان.

لما رأى الثــور على حالــه، من الدوران الرتيب، ذكره بأحد أرقـاء الرومـان يـدفع محور رحى ما، بيديه؛ والجلاد في أثره.

قال صاحب المعصرة :

- هكذا نستخرج الزيت.

تقدمت **زينة**، فأفرغت سلة الدوم. سمع صاحب المعصرة يوضح :

- هذه هي السلة الثانية، أي أربعة أصوع.

- متى تستخرج الـزيت؟ مخاطبـاً صـاحب المعصرة:

- بعد العصر.

تــذكر صــاحبته، **وتادينــارت**، وتــزامن الأحداث، فقال مخاطباً أخته :

- عودي إلى الزيت بعد العصر.

صافح الرجل، ثم تركه. همس لأخته :

- اغسلي القميص الصيفي.

حــركت رأســها دلالة على تلبية رجعت إلى البيت، بينما سار اتجاه **العين**.

وكــانت الحــرارة قد اشــتدت وارتفعت درجتها بشكل لم يألفه في **الدار البيضاء**.

لما وصل، خلع ملابسه.

كــانت جــوانب **العين** غاصة بــالطلاب، وكانوا يتناوبون في السباحة واحداً تلو آخـر؛ ما انتهى أحــدهم، عــرض جســمه للشــمس، وسرعان ما يعود للماء؛ فـالجو جـاف، والقيظ اشتد.

انغمس بـــــــدوره في الينبوع الذي انبثق من مغارة صخرية تفور مترقرقة. مياهٌ شفافة منعشة.

كان لا يزال يسبح حينما وقف عليه سرب من الفتيات تتقدمهن فتاة شابة، كلهن يحملن جراراً لملئها. وما أن رآهن الشبان، حتى أفسحوا لهن الطريق، ذهبوا بعيدين عنهن. وما كاد يراهن بدوره، حتى خرج من **العين**، ينفض عنه الماء. جرى يلف جسمه في منشفة، حمل معه ملابسه، مهرولاً يقتفي آثار لذاته، إلا أن صوتاً استوقفه :

- أوجدت انتعاشا في **العين** ؟

كانت صاحبة الحذاء المفقود. هي تماماً كما كان قد سمع صوتها في **تادينارت**. أحس بارتعاشة تداعب خاطره : لقد تحدثت إليه. يا مدت إليه يدها يقبلها !

قال؛ وقد ارتدى ملابسه تاركاً مفتوحاً :

- عفواً... أنا لا أستطيع تحمل الحرارة !

- أنت انعزالي، ضعيف، لا شيء، ولا أياً كان !

هكذا بدا ضعفه، أمام جبروت وإنسانه. إذا حسب نفسه جريئاً؛ فهي أجرأ منه في الأجوبة المفحمة، هي تعرف نقط كأنها تصفحته شعرة شعرة.

بحث لها عن رد لائق ...

لم يعد يعير البلاغة شأواً، تخلى عنها يلتمس المنطق؛ وأنى لهذا الأخير برقة العبارات، ولطائف الردود ؟

هيهات ! مشاعره العميقة فقط، تنير هـذا السديم المحيط بـه، تكشف عن جدرانـه، جديـدة كانت أو مبتذلة، يقـام لها وزن أم لا. لكنها تكشف عن أفق عظيم. يتبـــدى له في تناقضـــاته الحب، في الغيرة التي تعصف بكل شيء، فتحيله إلى هباء، ثم إلى لاشيء، إلى العدم.

أليس الشعراء أولى بـالحب من المناطقة ؟

هو، ليس بشاعر **كبدر**؛ وإن كان له إلمام بفنـون العـرب؛ فهو إذن كالمسـن، فعـال، وليس منفعلاً.

اسـتنجد بكل العلـوم، لكنه لا يسـتطيع يطلع على كنه النـــاس إلا من وعبثاً تمتم، فشد أزرار قميصه :

- ليس لدي وقت لأتأقلم.

- أي إنك في حاجة إلى مزيد لتتحمل الغير.

ومرت الصواحب متتابعات أمامهما.

لماذا تشي صاحبته بكل شـيء منذ ؟ مرور صواحبها بدون التفات أو توقف، هي بداية من التهكم، يشــعر به إنســان مثله ضــائع

سفح صخور شاهقة. إنه في فراغ قاتل، وإنه ليشعر أن قلادة العالم تنفرط من بين أصابعه، وتتبدد جواهرها في الهباء. ثم قال مستدركاً، أن شعر بخطورة تلك الجملة المنفلتة منه :

- أقصد أني في حاجة إلى تحمل جو البلدة.

ودون أن تكترث بجوابه، أنشأت تقوله :

- لماذا تحملت هذه الوردة جمال البلدة مشيرة إلى إحدى الورود النابتة أمام **العين**.

هنا، شعر بأنها في الطريق سائرة لتدوس ثقافته النظرية بقدمها. لا يدري من أين أتاه الجواب الارتجالي، ولا من أين أتته تلك حينذاك؛ فهو ليس ذلق اللسان حينما قال :

- لقربها من **العين**، وبعدها عن الجفاف !

قالت ببداهة لا تعدمها أية أنثى في جمالها :

- أما أنت؛ فقد انغمست في **العين**، وجسدك لم يجفف بعد.

ثم تركته وحيداً، ومضت لملء جرتها.

الصرح المعرفي يتهدم، منطق **أرسطو** يتبدد. ماذا ينفع كل ذلك أمام هذا الكائن الأنثوي ؟

خيل إليه أنه قادم من كوكب آخر، وأنه تائه في هـذا العـالم الغـريب الـذي يُكوِّنه وذراه، وسـفوحه، ودوره المتنـاثرة هنـا، وهنـاك، وإنسـانه الهلامي، والأفكـار غـير المعقولة تحيط به. لماذا هذا البؤس اللاإنساني ؟ أليست الغـيرة، والحـيرة، وهـذا التقـزز، سـوى طريـق، واستدلال، نحو لاشيء ؟

وبـدت له تلك الهـوة الفاصـلة بينه غيره، حلقة مفرغة.

مرت أمامه حاملة جرتها، عائدة تتبختر في دلال :

- أما زلت هنا ؟

تلعثم لسـانه، خانه الجـواب؛ وقد متجهة نحو **أنوغراس**.

التحق ببقية الرفاق، فاتخذ له مكانا بينهم. كانوا جلوساً تحت ظلال كرمة يدارون بها الشمس، يتحدثون في مواضيع شتى.

(الوردة جميلة، لمـاذا تحملت جو البلـدة أليس جميلاً أن يقترب من الآخـرين ؟ كيف حبه، ويفهم غـيره؟ لو فهم النـاس على حقيقتهم، لما ترك أبـاه يـرهن أملاكـه.. ! فـإذا به قد أصـبح فقـيراً معـدماً ! هـذه فتـاة دون مسـتواه ومعرفة تحطم كل ما بناه، فهي تقول له بفصيح

قول لا غموض فيه : أنت جاهل بعض الشيء، لمجرد أنك لا تشترك مع الآخرين).

تلك أعشاب أخرى، تتفاوت رائحتها الفواحة النافذة، وبين ما لا رائحة له مطلقاً، وتلك عين ماء، تكاد تنطبق عليها أوصاف **لافونتين** من حيث الشفافية والانتعاش، ولكن إحساسه يتجاوز ذلك، إلى حيث يتطابق خرير ورقرقته مع هبوب نسيم المساء، وألق النجوم والمذنبات، والكواكب المدارية. حتى الليل، عطره الخاص، ذلك العطر غير المستمد من الرياحين والأقاحي، وهو إلى ذلك، لا يستطيع يتجاهل كل ما حوله. فقط يكتفي بمعرفته، فكأن كل شيء يصرخ في وجهه : " من قال إنني أيها الغبي ؟".

هكذا تكشف عنه صاحبته الغطاء، شيئاً فشيئاً، فلينفذ بصره في الآفاق إن استطاع، وليمتط صاروخاً حديدياً، مركبة مصفحة القمر والنجوم ! لكن، أنى له ذلك ؟ بدا واضحاً.

كان لا يزال متكئاً على صخرة الوردة من بعيد...

لا شغل يشغل باله إلا صاحبته.

حول بصره عن الوردة، ألقى نظرة الطلاب. الكل يبدو عليه الانشراح والبشاشة. أما

هو؛ فقد استغرق في هموم قاتلة : " أبوك رهن كل أملاكه.

والأســـرة تنتظر منك العمل براثن الفقر، والمجاعة المحققة ! عليك ألا تكترث !

وثلاث ســنوات في انتظــارك بالجامعــة. عليك ألا تكترث !

لن يــؤدي الثمن إلا والــدك المعــوز. ما جــدوى الامتلاك؛ والعــالم يتفتت بين أصــابعك "حـــاول عبثـــاً أن يتغلب على ذلك الحلزوني المتجه إلى هــوة عميقة لا قــرار أما أملاك الأسرة؛ فتسترجع بالمال، وأمرها غير معقـد". وإن كـان يـدور في حلقة مفرغة بـدوره، وأما انتظــار أســرته، أثنــاء انعكافه على الحقوق، " فعلى هذه الأسرة بالصبر، كما صبرت قبل؛ وتلك أيضا حلقة مفرغة".

وأما الســـنوات الثلاث في فسيقطعها بجده واجتهاده؛ وقد عرف بحبه للدراسة والبحث. ومع ذلــك؛ فليس ثمة مؤكــد؛ وهو يلتقط المعــارف هنا وهنــاك، التحاقه بالجامعة. وأما صاحبته، الشـغل الشـاغل له، فهو ما لا يجد له حلاً... فلا مناص من حبها !

كل شـــيء له حـــل، وكل ما يستطيع فهمه، إلا النساء.غريب أمرهن !

وأغرب منه أمر صاحبته، حيث ينتهي كل شيء إلى تأويل، إلى مجـاز، على صـور وأطيـاف جميلة طريفــة، إلى عــدم اليقين : إلى طبيعة هــذه البلــدة في ســفح الجبــل، البربرية الحمــراء. يمتد به الخيــال، ويشــتط التقدير !

أهــذا ما يســمونه الحب ؟ ذلك النوراني الذي قذفت به العناية الإلهية في فترة مظلمة من تـاريخ هـذا الكـون، فتلقفته النفـوس الصافية تقتبس منه سراجاً ينير المسالك !

هو بدونها يتخبط خبط عشواء.

أين لذة الانتصار التي كان يشـعر بها كان يخيل إليه أن صخور **الكست**؛ وهي الجامدة الصماء، هنأته ؟

هنأته على ماذا ؟ على هذه المعرفة- الحب ؟ على هــذا الاكتشــاف للعــالم بالتناقضات ؟ لقد أذله ذلك الحب بما فيه الكفاية. حسبه ما يتخبط فيه من مشاكله !

ولأول مــرة يناصر الــذين يــدعون الحجاب والعفة، ويود لو يجمع قيود نساء الحريم، فيضعها في يد **تعزة**.

بل يود لو كان عبـداً بين يـديها تفعل تشاء، دون قيد ولا شرط، عدا أن يكون بعيداً عن أنظار الفضوليين والمتطفلين.

بهذه السهولة باع حريته، بلا مساومة، بلا حرب، باعها مقدماً بلا طلب !

أليس الحب إلا سـهاماً تـرمى بها العاشقين؛ وهي عزيزة المنال، حتى تفقد جزءاً عظيماً من كبريائها ؟

ما باله يظل هكـذا، مضـطرب الخـواطر، مبلبل الأفكـار ؟ أما شـعر باطمئنـان؛ وقد من أنانيته ؟ صاحبته، لا يراها إلا نادراً، كنسمة لطيفة تهب بغتة على عالمه.

ليت له عملاً مثلهـــا، ومثل الكادحين حتى يسبح في بيئتهم كالسمكة !

ليته كـان شـلحاً قحـاً خالصـاً يتقن **الشـلوح** إتقانـاً ! الشـيء الـذي يتقنه من لهجة قومــه، لا يعــدو أن يكــون من الضــروريات ينجـــده، عنـــدما يتحـــدث إليهم، أو يطلب حاجته.

فمن هو بالنسبة لمن يحيطون به ؟

نظر إلى الطلاب المستظلين تحت الكرمة واحـــداً واحـــداً : **بـــدر** يكتب بالفرنسية. **قاسم بن عـدي** يحـادث تـاجراً صفقة عقدها في الأسبوع المنصرم، شابان تاجران يتحـدثان بـدورهما عن أحـواش جـرى **تافرازت**، طالبان يتحدثان في أمر ما، وثلاثة آخرون يتحدثون عن الاكتشافات القطبية.

اقترب من التاجر الذي يحادثه **قاسم بن عدي**، حديث الواثق من نفسه، فسمعه يقول :

- المشروع الآن في طور التحضير... نحن في حاجة إلى سكرتير يتولى إدارة الشركة يسير كل شيء كما ينبغي.

ولما لمحه **قاسم بن عدي**، قال لصاحبه التاجر، مشيراً إليه :

- ما رأيك فيه ؟

هز التاجر حاجبيه، دلالة على عدم معرفته به، فانبرى **قاسم بن عدي** يقول :

- الأســـتاذ، رفيق الصـــبا، **ابن** بكالوريا عصرية.

- أهلاً وسهلاً. قال التاجر.

رد عليه :

- أهلاً

- كيف حال **السي فاتح** ؟

قبل أن يجيبــه، ســمع **قاسم بن** يستبقه إلى القول:

- رهن كل أملاكه من أجل هذا...

ألا ما أحقره !

لا مــال ولا جــاه، يحميه من لســان كصاحبه **قاسم بن عدي** !

قال التاجر : " إننا نتحدث عن مشروع شركة للبواكير والحوامض أنشــأناها في وقد نكون في حاجة إليك.

سكت، لم يجبه، كأنه لا يفهم شيئاً أو هو لا يريد الفهم مطلقـاً. ولما فطن **قاسم بن عـدي** إلى تردده، قال لصـاحبه التـاجر : سـأتولى تـدبير الأمر بنفسي، وسأقوم بشرحه للأستاذ.

أما التاجر فقد ودعهما سالكاً دربـاً ملتويـاً في الواحة.

8

دار **قاسم بن عدي** مبنية على الطراز الحديث، خلاف بيت **السي فاتح**.

دخلا صالون الضيوف ذا السجوف والستائر المختارة بذوق رفيع. في الوسط، مائدتان ذواتا شكل دائري، وعلى أرضية الغرفة سجاد ثمين وُضع بشكل منمق. على جوانبه، أرائك جلدية فوقها مساند حريرية خالصة.

وقبالة **قاسم بن عدي** جلس مركزاً عينيه في لوحتين فنيتين، إحداهما عبارة عن غانية- كما تقول القصة الشعبية- أيام جلاء **البرتغال**، نسيت مشطها الذهبي في البلدة، فطلبت من أهليها، أن يصاحبها بعضهم لأخذه؛ وهم بعد، على جبل **أياي**[5]، قد جُلوا عن **الوادي** نهائياً. حاولوا إقناعها بتركه، بعد استحال عليهم الرجوع، فما رضخت لنصيحتهم، بل رجتهم مراراً أن يصاحبوها حتى لا أسيرة في أيدي الأهالي. ألحت، لكنهم رفضوا العودة. أخيراً، قررت الرجوع لأخذ مشطها، مهما

---

[5] **- أياي، ربوة جبلية على شكل هرم (غرب ملتصقة بجبل الكست. تقول الحكايات الشعبية أن البرتغال هربوا عبرها، أيام التعبئة المغربية حكمهم، أو قبلها، أيام وادي المخازن.**

كانت العواقب. أسرجت جوادها. وسارت بمفردها حتى ظفرت بالمشط الذهبي. وفي طريقها إلى قومها **بأياي**، دلت الأهالي العيون التي ختم عليها **البرتغال** بالطين، فتدفق الماء من كل عين تغرز فيها مشطها، ففُسح الطريق نحو قومها مقابل ذلك.

كان **أياي** شاهداً على تلك الغابرة في الأزمان :

أياي يروي تلك الرواية عن **الرمال**[6]، ما زال يحكي حكايته **بداخل الوادي**[7] **وتحت الرمال**[8]، يرويها للقرون والأجيال، يرويها على مر العصور، بينما الغانية البرتغالية قد نزلت من جوادها يحيط بها الأهالي.

كانت هنا وهناك، قبائل يضطهدها الاحتلال، تحكمها شرذمة من حكام أجانب، تحرم امتلاك سكين لقطع الباذنجان. الأهالي يحرثون فقط الأرض للأسياد الذين ضربوا في الآفاق، غزاة أو غجراً، يواصلون الاكتشاف في ليست لهم، أرض **البربر** الذين قهر قراصنتهم سفن الرومي التي تخرق مياه **المورو**.

---

6 - فوق الرمال، إسم مكان، في ربوة أياي، تعريب عن أصله الأمازيغي أفلا- أوملال.

7 - داخل الوادي : اكنس- واسيف : قبيلة.

8 - تحت الرمال : دي ملالن اسمايون نزل فيها الشرفاء الركراكيون.

حتى إذا جاء وقت الحصاد، استأذنوا الحكام، في استعمال مناجيل حصاد زرعهم. بيتوا أمرهم على التمـرد، وطـرد الأجسـام الغريبة هذه الأرض المباركة.

كـان العـدو منشـغلاً بكشط الأرض، تحصيل نتاجها الوفير، لتمويل مشاريعه المنجمية. إلا أن الأهـالي هـاجوا ومـاجوا في منتفضـين، فانقضـوا على رقـاب الأعـداء من مكان، مما اضطر المحتلين إلى الفـرار، أن طمسوا مصادر المياه التي لا يعرف عنها أهـالي البلاد شـيئاً، وبعد أن طمسـوا المعـادن. الاحتلال، كان استعماراً تخريبياً متوحشاً.

كـانوا في الحقيقة أبطـالاً حينما أجهـزوا على المحتلين بمناجل صـدئة، فتحـررت الرمـال والجبال.

فر العـدو من جبل **أيـاي** الكًصور[9].

غـاب **قاسم بن عـدي** المقابلة للصـالون، أما هو فظل يقلب بصـره اللوحة الثانية الـتي هي عبـارة عن سـفينة الطـراز القـديم، فـوق ظهرها خليط من

---

[9] **- الكصور : بناءات منتشرة في درعـة، وتطلق على الدوار الذي يحتوي على الكصور.**

ومسافرين : أهذا ما يسميه صاحبه فلسفة الجمع ؟ استفاق على صوته :

- ماذا تشرب يا أستاذ ؟

- الشاي.

غـاب **بن عدي** هنيهـة، عـاد بعـدها يحمل صينية بها إبريق وأكواب من البلور !

قــدم له قــدحاً. أخذ لنفسه قــدحاً ارتشف منه في دهاء :

- ذكرت لي أنك تواجه مصـاعب مادية حياتك ؟

- أجل. لا أزال أواجه الفقر؛ وأنت ترى من أمري ما ترى.

قال **قاسم بن عدي** في نـبرة تقريريـة؛ وقد تعمد أن يترك قليلا من الشاي في الكوب :

- ألم أقدم لك حلاً لمشاكلك ؟

- بلى، قلت المال مفتاح كل شيء.

ارتشف **قاسم بن عدي** جذبة من كوبـه، ثم أخذ يوضح :

- الحصــول على المــال، يكــون بشــتى الطرق.

سكت قليلاً ليستأنف :

- أنا لست أســتاذاً محاضــراً، ألقي على طالب، أنت أكثر مني ثقافة، وأغزر معرفة.

وقام مركزاً بصره بعيداً :

- لعل أقصر السبل للحصول على المال، التجارة.

تنهد يسترسل في كلامه :

- إني لأتأسف على كثير من الأوقـات، ضيعته في تلقي المعادلات الرياضية ذات المجاهيل. وفي حياتي العملية، لم أسـتفد " الضرب"؛ فهو يختصر الطريق نحو الأرباح.

توقف هو، عن إتمام كأسه، مـأخوذاً **قاسم بن عدي**، ثم انـبرى هـذا الأخـير بالموضوع :

- ارتـأيت أن تـدير معنا شـركة **البواكـير والحوامض بأكادير**. وأكد مؤمنا على قوله :

- هـــذا العمل وحـــده، كـــاف أن وضعيتك.

- لكن لي اتجاهاً نحو القانون.

(ذلك جوابه النهائي).

تخلص منه **قاسم بن عــدي**، كمن من مسؤولية:

- أنت المسؤول عن وضعيتك منذ اليوم !

قـام يسـتأذنه في الانصـراف، دون إتمـام كوبــه، فسـايره **قاسم بن عدي** إلى البـاب، ودعه.

وجد نفسه في حيص بيص؛ وهو يهبط المنحدر نحو الواحة :

أيتنكر للمعارف الجاهزة التي يؤمن بها، حتى تمر هذه الفترة العصيبة من حياته، وحتى يعرض نفسه لمحرقة من العصور الوسطى، فيكتفي بالقول : إن لهذا العالم المعقد، أبعاد فقط، أو إن المقولات العشر، لا يصح إلا مقولة الكم، ومقولة الملك ؟

ابن المقفع، بحكمته، ومسالمته، قطعوا لسانه. **ابن الخطيب** أحرقوه، **أبو حيان التوحيدي**، ضيقوا عليه، فاضطر إلى مسايرتهم **بالإمتاع والمؤانسة** بيد أن حياتك، ليست الآن عرضة للمخاطر الحد أو ذاك : ليست هناك محرقة.

ترى، لماذا يجعله **قاسم بن** يستشعر مثل هذا التناقض البادي بين الأشياء في هذه البلدة، وبين البداهة التي تعصف بحب الحياة ؟

حقاً، إذا أحب **قاسم بن عدي** الحياة- على ما شاهده في اللوحتين الفنيتين المعلقتين في صالونه- عليه أن يتعامل معها ومشروعية، حتى يكون صادقاً مع نفسه، الحياة، أي عليه أن يكون منطقياً حتى النهاية؛ وهذا من المحال. **سان جوست**- وجه فتاة وقلب أسد، الذي ظهر في ظل **روبيسبيير** جبار الثورة- كان يحمل معه تناقضاته : خطيب

الاستبداد والقمع، ومدافع عن الإرهاب الثوري في ذات الـــــوقت، ثم بعد **روبيســبيير**، ليقطع رأســاهما بالمقصــلة. يا من مفارقة !

لولا ذلك المنطق الـذي تعـرض للاهـتزاز، لولا هذه المفارقـة، وذلك الإصـرار حـتى النهايـة، لولا كل ذلـك، ما لقيت تلك الأفكـار حتفهـا، عن معــنى مــا، في هــذه البداهة الفجــة، الغنائية العميقة للحياة والأنا.

تعب من الجولة في راجعاً إلى بيته.

9

كانت كالدرة يأخذ بريق جمالها بالأنظار، فـإن وجـدت في وسط **العـآمت**، لا تلبث طلعتها أن تظهر.

درة في سـفح جبل أشـم، في أعز لائق بمثيلاتها من الدرر النوادر.

والجبل المشـــمخر يضم قـــرى يقربها إلى هضـبات صـدره، فكأنه لا يحنو إلا صاحبته، وكأنه لا يضم إلا بيتها !

يا لها من درة قــذفت بها الأقــدار وسط أجمل مكان في **الجنوب** !

أما هـو؛ فطالما قـاوم الشـدائد والمحن صبر على نهشـات الطـوى المـبرح؛ وهو يومـذاك في شــقة **بالبيضاء**، في شــارع **فوكو**. فما إذن، يقف مكتوف اليدين أمام سهام حبها ؟

صـبر على نـوائب الـدهر، ولكنه ما عنها صبراً دقيقة واحدة.

ســرى حب في جوانحه كتــأثير ســيجارة تخدر حواسه، أول ما يدخن. أحس بنشاط وغرور كـدبيب المـدام في رؤوس المنتشـين، ثم ما

أن بدأ يطلبها ويستقصي أثرها. اندلعت في نفسه ثورة عارمة، لولا جدران الكبت، وعزة نفسه، لأشفق عليه الناس حينما يسمعون انفجار براكين ثورته. إنه يشعر بان الفرصة مواتية للخروج هذا المناخ الخانق، إلى مناخ قدسي عصي الإدراك، وأحيانا يفضل البقاء في بوتقة على نفسه، باحثاً عن جوهرة الجواهر في مناخ خانق.

أذاك هو الحب ؟

لكن كيف الوصال ؟ هو كالسمكة كالمحارة، قذفت به أمواج المقادير من **البيضاء** إلى **الجنوب**، إلى **أنامر** بالذات، إلى وسط غير وسطه تماماً كما قذفت **بعم بوهو وأبا الحبيب**، وربما **ببورون**.

أيمكن أن تعيش السمكة إلا منغمسة قعر البرك والوديان، بل في البحور ؟

وماهو بسمكة.

ليته كان جريد نخلة، يزهو كنخلة **بوتزدوا**- أم النحل- ينحني لصاحبته تارة، وتارة أخرى يتهادى مع النسيم مشمخراً إلى السماء، فتضطر هي، رأسها، لتشاهد ذلك !

في خضم اليأس تبدو الحياة أجمل من ذي قبل، جديرة أن تعاش.

بيد أنه يوجد في بلدة منغلقة على نفسها. توجهاتــه، إنما تنبثق من أنانية ضــيقة تنطلق غيرية واسعة إلى المطلق، لتنشــغل بعد صياغة منطقها المنعزل، الذي يقف ضد التطور.

ماهو بسمكة !

هو إذن؛ شـــخص له عواطـــف، وعزيمة، وشعور، له دوافع وحوافز، فكيف يخضع لتسلطات الأقوياء؛ والبقـاء في هـذه القرية سطوة من يملك في حدود علاقات بين السيد والمسود؟

الحب يقربه من الآخرين حينما يطلبها، ويتعقب أخبارهـا؛ وما بـرح يشـعر بلـذة روحيـة. وذاك مـــالا ريب فيـــه؛ إذ لـــولا الحب، كالســـمكة، أو كالمحـــارة فعلاً... ويبعـــده الحب عن الآخـــرين، حينما تتـــأرجح في نـيران الغـيرة؛ فـإذا به ينـوء عنهم بوجهـه، بالاشمئزاز، ودلائل الإعراض، والنفـور، بادية على ملامحه !

لا ضـــير ! لقد قـــال كلمته من شعري : (العيش بعدكم عدم).

هاهو ذا يقـترب أيضا نحو الآخـرين، حياة جديدة. الآن يعيش العيش الوجود ! العيش المنفتح، حيث المتنفس، وحيث التأمل الممـــزوج بالإنسـانية الـتي يتحقق وجودها في تجريد أفكـار

ملموسة، بدلاً من موجودات محصورة، معطلة عن أي عمـــل. فحبه حيـــاة؛ وهو واقع سـفح جبـل. إذن هو حقيقة من حقـائق الوجـود. لكنها حقيقة غير مطلقة.

لا عيب إذن، في هذا الوجود. إنما صاحبتْ تحـــركَ الإنســـان فيـــه، منذ ابتلاع **تفاحة** سلوكات أخرى ناجمة عن محـاولات متعـددة **الحلـــول والاتحـــاد**، فكأنما كـــان **الإنســـان** بطريقة ضمنية، يرفض **الخلود** !

تواردت على ذهنه هذه الخـواطر، منتشـياً من أطيافها؛ وهي التي ملكت عليه كل حواسه.

كان يسير بخطى مترددة نحو **تادينـارت** يسير، يمني نفسه برؤيتها.

أنى له الوصال ؟

ازدادت ثورته الداخلية انـدلاعاً حـتى إليه أن كل خطوة يرميها في أعقابها؛ وهو يقتفي أثرها، صدى هدير تلك الثورة العنيفة، وأن أنفاسه آهات مكلوم الجوى.

ليحث خطـاه نحو **العـآمت**، إذا كـان الحادث حقيقة واقعة !

فليتقدم !

وليطو فلـــوات الهجـــران، إن كـــان هجران !

وليشخص ظل وحدته الموحش تشخيصاً عن طريق اتصاله بالآخرين !

لمـــاذا يحرمـــون في مجتمعه الحب؛ أكثر الأفعال براءة ؟

يســـتهزئون بـــالمحب، ولربما ينبذونه القذى من العين؛ في حين، يلتمسون للآثم الأفاك عـذراً، ويغضـون الأبصـار عن فعلتـه؛ وقد لا عليه باللائمة !

مـــاهي إلا دقـــائق، حـــتى **تادينارت** !

رنت في مسـمعيه موسـيقى تنـذر بالويل والثبـور، قـال في سـريرته : (حـذار من العيـون ترمقني).

" أي جريرة أتيت إذا أنت تقدمت بجراءة، فبادرت أفراد **العآمت** بالتحية، وخالطتهم تلقائياً، واندمجت معهم في أهوائهم وميولهم؟"

" أين خفة دمك ؟"

" أللهوى عوارض كجميع العلل ؟"

" ماهي ؟"

" أليس احمرار وجنتيك، والعرق المتصبب من جبينك، إلا من عوارض ما تورطت فيه ؟"

" يا للفضـــيحة، لو تكشـــفت للناظرين !"

" وهل تراها خفيت عليهم ؟"

" تخاف من الفضيحة، وفي عرفك أن المحب ليس منبوذاً ملعوناً. أي تناقض هـذا الـذي يهز أسس المفــاهيم حــتى يكــاد يقلع الراسيات في الأعماق ؟"

" تطلب الاجتمـاع بـالأفراد والأنـواع، وفي نفس الــوقت، تناشد العزلة تحت ظلال بعيداً عنهم !"

بنــدان متعارضــان ! يــنزع لكليهما عوامل خاصة، وفي ظروف خاصة، وما عدا ذلك، فهو ينزع للجماعة.

وإذ هو مستغرق في خواطره هذه، فتى يافع بالتحية، ورد عليه.

وسأله آخر :

- إلى أين ؟

تلعثم يغلبه الحياء :

- إلى الملعب.

انتظر من الشــاب أن يصــطحبه، سمعه يقول :

- طيب.

قالها للتخلص منــه. كــذلك كــان جــزاؤه حينما كذب.

جال ببصره في أنحاء **تادينارت** : الشبان يحتكرون اللقاءات، والمواعـد، كما يحتكر آبـاؤهم المواد الغذائية في **البيضاء**.

لاشيء تغير في البلدة، لا شيء.

يا ويـــرزان، انبعث من رمـــاد والقرون، كن وحشاً ضارياً يفرض وجوده بين الأدغال !

اغطبـقْ من رضاب الأصـيل أكؤسـاً تنعش بها صـــــدرك الملتهب، لتهتـــــدي المختارة. وتوخ الحذر، فهناك وحوش آدمية أخرى.

جماعــات هنا وهنــاك، وجــوه تطل الغصون... وآخرون عيون على غيرهم.

استرق السمع، فتقدم يخترق الأدغال.

رما بصره في كل الأنحاء.

أخيراً مـرت هنـاك دراجة على بعد قـريب من **تادينــارت** : ليست هنــاك ! لعلها حضــرت قبله، أو ستحضر بعد قليل، أو لن تحضر بتاتاً.

كي يصلح خطـأه، عَبَـرَ طريق السـيارات، وانحـــدر نحو **وادي أنيل**، في طريقه **آمالو- خفيس**.

10

- من بالباب ؟ قالت **زينة**؛ وهي تهبط الدرج. سمع صوتاً سرعان ما تذكره، إنه صوتها، ما الذي أتى بها في وقت متأخر بعد المغرب سمعها تقول لأخته :

- زينة أسرعي !

ثم سمع انفتاح الباب، فانتهى مسمعيه وقع خطواتهما؛ وهما تصعدان الدرج معاً. ما إن رأته حتى بادرته : " أما زلت ابتلع ريقه من سؤالها المفاجئ، لتتدفق كلمات الفرح من فمه :" كنت اليوم في **تادينارت** ولكنني لم أرك هناك !" واجهته، ولكن بوداعة : " هأنذا قد جئتك بنفسي".

ثم التفتت إلى أخته **زينة**، كأنها تعتذر عن هذا الاقتحام الفجائي، منتبهة لسانها، فأكدت لها : " يجب الحضور غداً إلى **السي بلحسن**". ردت **زينة** أن ذلك كثيراً.

لقد جاءته بنفسها. وعندما انتهت الزيارة، اندفع يضيء لها بالمصباح البطاري، يهبط الدرج، حدثته على انفراد، كثر تهامسهما، استطردت " أما زلت تسأل عن اسمي أجاب" الآن أحسن تهجيته".

عاتبته : " يا لك من عاق ! لماذا لم تسأل عني أحداً كل هذه المدة ؟".

وكأنما يؤكد لها حبه حين أمسك بيدها قائلاً :" أنا غريب بين قومي".

وكأنما تريد بدورها أن تقطع ترددہ وحيرته : " اسـأل عن **تعـزة** من آل العطـار، نلتقي في **أحـواش**. " تهـرب : " أنا لا لهجة قومي".

- ارقص وغن.

ثم ودعته.

" ارقص وغن" ؟ لا بـأس. إنه فقـير، ليشرب من قلل شمس **أنامر**، ويستظل بدوحة الواحات، يعـبر **الوادي**، والجـداول، يشـارك ري الحقول، واقتطـاف المحاصـيل. ولكن والـده رهن كل الأشجار والحقول، حتى نصيبه من المـاء اليومي ! إنه ليس بضال رغم غربته.

سوف يعصر قرص الشـمس، ويرتـوي أشعتها على المدى البعيد. أذنت له بذلك، وحدثته مختفية وراء جبلِ **فوق الرمال** ! كـذلك همست إليه النجـــوم والمـــذنبات البعيـــدة ! همس **النجم المـــداري**، أن **تادينـــارت** غـــير للخـــروج من القوقعـــة، همس إليه **الســـها** الأجواء البعيـدة، البعيـدة، والـذي يصل ضـوؤه ملايير السنين الضوئية ليضرب في عمق الظلمة الدامسة، أن على هذا المجتمع أن ينبذ عنه

التخلف، ولباس الخنوع، وأيضا، لباس المواضعات القبلية العقيمة.

سـوف يرضع من حلمة الشـمس الشـمس، لبن مسـقط رأسـه، كما رضـعت بلدته **أنامر** المشمسة العظيمة.

مازال طفلاً يهفو إلى حب الرضاع.

استفاق من أفكـاره على صـوت **زينة** أماه ! هذا كل ما احتلبت هذا المساء !"

نـزر من الحليب، لأن البلـدة تجـرى البؤس، والكسل، والخضوع للأمر الواقع ...

تسير إلى لا هـدف. لا أحد يكلف نفسه يرفع رأسه إلى عين الشـمس، أو حديث **النجم المداري**، أو يهتدي حتى إلى طريق قويم وسط الأمواج، والهوات العميقة.

11

يدب نشاط عظيم في بلدة **أنامر** منذ أول زقزقة الطير، مرحبة بميلاد نور صبح إلى أن تودع مسحة من حمرة أصيل **داخل الوادي**. وقد يستمر هذا النشاط وقت متأخر من الليل إذا كانت بالمناسبة.

كانت الساعة حوالي الثامنة والنصف مساء، والنشاط مازال يدب في جميع أرجاء قرية **أنامر**.

يمم أهل القرى المجاورة، دار **بلحسن**. وفد على الدار المبنية بشكل عصري، حديث، أفواج من المهنئين والمهنئات، من القرى المجاورة، وريئت أنوار **لافاكوم** من بعيد، كأنها نيران القرى.

انتصب **السي بلحسن** بنفسه يستقبلهم، كلاً بما يليق بمقامه من ترحاب.

أخذ يسأل بين الآونة والأخرى، **بورون** عمن تخلف : هـــذا **أبا الحـــبيب** المنحـــني، وذاك **ســـيدي الفـــاهم** المتوسطة تخط شعيرات من الشيب رأسه، وآخرون، رجال ونساء، قدموا من قبائل شـتى أما هـو، فقد حضر بصـحبة والـده **السي فـاتح** وجلسا بين المدعوين.

غصت كل الغرف.

نــادى **بــورون** كــآخر إعلام له حضر، إلا بعض الشيوخ والعجائز الطاعنين في السن".

ثم أمــره **السي بلحسن**، أن يرسل من قعد به العذر عن الحضـور، نصـيبه من الوليمة.

وكـان صـاحب الـبيت قد تلقى أعـذارهم على لسان **بورون**، فتقبلها.

في زاوية من غرفة الطـــابق **ســـيدي الفـــاهم**، وبجانبه **قاسم بن** وشرزمة من ظرفاء القرية.

نصـبت الموائـد، عليها أشـهى الأطعمـة، وعقرت زجاجات المرطبات.

تقدم **عم بوهو**، لقد كـان آخر من حضـر، خلع نعليه، ثم أشار بعينيه إلى **بـورون**، فهم الأخــير، مغــزى الإشــارة، فقــدم إليه الطــاس

يغتسل. وما أن لمحه **قاسم بن عدي**، حتى هتف به :

- تفضل يا **عم بوهو** الحاضرين أولا.

رسم بيده دائرة في الهواء، علامة تحيته للجميع، فتقدم يتخذ مكانه حول المائدة يأكل عليها **قاسم بن عدي**.

وما لبث أن قال :

لا تأكلوا حتى تسمعوا ما يلي :

تعلقت به عيونهم، وكفت الأيدي عن تناول الطعام. قال : " عرس في **تامالوكت**، بعد غد".

" **سيدي الفاهم** ينشر مقالة يطالب فيها بتحرير المرأة السوسية".

ضجت الغرفة بالضحك !

تدخل **عم بوهو** قائلاً :

- السكوت ! كفوا أيديكم عن الأكل إليكم بقية " الخبر"- :

" الأشجار لم تورق هذا العام في الجبل".

" ثمار أركان قليلة، وكلما سقطت جوزة، قرضها السنجاب".

انتقلت عدوى الضحك إلى بقية الغرف المتقابلة حينما قال أحد المدعوين، موجهاً إلى **عم بوهو** :

- وما لا تسرقه القوارض في البراري، يفسده الخنزير البري في أرضنا الندية.

وكـــأن **عم بوهو** قد انتهى سنفونيته، فقال في ظرافة:

- كلوا على بركة الله !

كـان **بورون** يسـير بين الصـفوف، يلـبي طلبــات الضــيوف. ولما فتح إحــدى زجاجــات المرطبـات، **لأبا الحبيب**، تعمد أن يلكـزه العبارة، إمعانا في الاستهانة به. " رفقاً بها قد **بلغ السيل الزبى !".**

خــرج الرجل الوقــور عن صــمته، أخيراً، قال بكل هدوء ساخراً من **بورون** :

- ما أشبه **زيداً بعمرو !.**

سرت النكتة في صـفوف المـدعوين، يسري التيار في الأسلاك الكهربائية، تغامزوا، وتهامسوا فيما بينهم، قال أحد الخبثاء :

- تجلد يا **أبا الحبيب !**

رد الرجل الوقور :

- للشامتين أمثالك.

أما **بورون** فقد انسحب يحمل معه أثقالاً من الغيظ للرجل ذي الظهر انهمك الحاضرون في التهام الطعام واحتسـاء المشروبات.

وحدك أنت الذي لا تلتهم بشهية، لا ابتسامة لك "المال مفتاح كل شيء !"

قد تكـون جـذور مثل هـذا القـول منطلقة من أسس حقيقية !

وكان أول من شـعر بوجـوده، عنـدما الغرفة المقابلة، **قاسم بن عدي** الذي رمقه بطرفي عينيــه، فحصه من أخمص قدمه رأسه: الحذاء، هو هو، لم يبد له بعد، كما جاء به من **الدار البيضاء**، البنطـال هو نفس البنطـال، القميص الصيفي هو الجديد على ظهره.

ســـلم، وجلس بين الحضـــور. انهم الضـــيوف في الحـــديث عن **الكونغو** مشــروع جماعة **أنــامر** لشق طريق للسـيارات فوق جبل **الكست** !!!

ولطالما شـكا له والـده الـذي يجلس مع الكهــول في الغرفة الســفلى، عن تصــرفات بعض الموســرين الــذين يــديرون مشــروعات خيالية، يرهقون بنفقاتها ظهور القرويين البؤساء، والأرامل. وكان قد سمع أحد القرويين يقول لأحد الموسرين :

- رفقاً **بالأنامريين**.

أجابه هذا الأخير :

- اللين لا يناسب سلوك القوم.

ثم قال ثري آخر :

- نحن هنا لنقوم كل اعوجاج.

أحس أن هـذه الطائفة من المواطـنين، تســتند في تصــرفاتها إلا على مركز القبيلة، في مجتمع جد منغلق، في أرض محصورة، وأن أفكـار هـذه الطائفـة، تعمل خـارج التاريخ، وان تقاليدها مرتبطة بكيانها الذاتي، وأنها تجهل وجــود حرية أخلاقيــة، وبــذلك الأفكار، ما يرتبط بانطوائية الأثرة، كما يتبدى في الغلو، لصيانة شرف القبيلة سطحياً، وإهمــال تربية أساســية تنمي قــدرات الفــرد في تطوره البيولوجي، وأن أباه؛ والحال هـذه، لكل استغلال.

عندئذ، شعر بالحنق، تكلم بجراءة كعادته :

- أتت (كناطح يوماً صخرة ليوهنها)

فأجابه الثري في غطرسة :

- وسندمرها بالديناميت.

- ولو أن في جبـاهكم قرونـاً من طين ؟

ثم أشــاح عنه بوجهــه، كــره مشــاركته الحديث، والرد عليه؛ وهو يسأله في هيئة موهوب لدني :

- ابن من أنت ؟

لم ير فائدة في جوابه؛ وقد شعر بغربة.

لم يجد العزاء إلا أن يمني نفسه بوجود **تعزة** في هذا الخضم الزاخر بشتى الوجوه.

مـــازال كســـمكة تـــرتطم في جـــوانب الأحـواض، لا قـرار لها بعـد ! ولاهي تعلم في تنغمس.

قال في قرارة نفسه : " كوميديا لا لها، يعيدون علينا نفس الأسطوانات : قد فهمناها، وهضمناها ! ".

لم ير في هـــذه البلـــدة، إلا شخصـية؛ وهي في معـزل شـبه تـام عن الحيـاة الحديثة. فمتى تصفو العلاقات بين أفرادها عن تضخيم الذات ؟

ومـاهي إلا بضع سـاعات، حـتى خـرجت **العآمت** إلى **ساحة الحوض** : خرجت زمرة من الشبان أولاً. أخـذوا يتسـللون من بين المـدعوين في الـــــــدار، إلى أن الساحة، تكـونت حلقـات، ولكل جماعة رأيهـا، صارت الحلقات، حلقة واحدة. أخذ بعض الشـبان الجريـــئين يفـــرض رأيه حـــول رئاسة الفولكلورية، كل واحد يدعي أنه أهل لـذلك؛ تخلى أحـــدهم عن الرئاســـة، فما خجول.

عبثت الأصابع والأكف على الدفوف بنقرات، أوقدت النار لتسخينها كلما كانت دقاتها بكماء صامتة.

أمسى كل شيء رائعاً في **الحوض** : الظلام الكثيف، لهب النار المتقدة لتسخين الدفوف، نقرات الأصابع عليها، التي كأن نغماتها صوت قيثار وحشي شجي !

سُمعت دقات الدفوف والطبول من **السي بلحسن** كما سُمعت من القرى المجاورة، نهض جل المدعوين ينفض الوقار والهيبة؛ وقد حنوا جميعاً إلى الطرب، مما جعل أحدهم يقول مدارياً تهافته : " تعالوا، صنع **عآمت** هذا العصر !".

أجابه كهل آخر، نحّتْ بقايا وجنتيه، بوادر شيخوخة واهية قادمة : " ما أراهم إلا مهجنين، لقد طبعهم الغرب[10]بطابع رخو، مائع، لا أصالة فيه !

قهقه الجميع، ثم نهضوا يلبون الطرب !

انحدرت الفتيات بدورهن، ومن هن حكم الفتيات من النسوة اللائي ركبهن الطرب، وهؤلاء الأخريات، إما إنهن مطلقات،

---

[10] - **سبقت الإشارة إلى مفهومه.**

وإما بائرات، أو اللائي غاب عنهن أزواجهن، أو فقدوا سلطانهم عليهن.

كان الفضل في جمع هذا الحشد النسائي الهائل، يرجع **لتاهرة**، زوجة **عم بوهو**، حركت المشاعر بلسانها.

ورغم كثافة الظلام؛ فقد تلألأت حلاهن الفضية، فاختلط الحابل بالنابل. وسرعان تحلقن، ثم استهللن أهزوجتهن :

" تبرك يا قلبي،

تبركي يا عيني،

حتى ينتفي ادعاء،

أن المحب لم نره ولا رآنا...

والفضل، لمن دعانا، (إلى الحفل)

وهو السي بلحسن الذي هو خاف (كأنه علم في رأسه نار).

إن راحته تفيض دنانير، كما الينابيع..."

بالغن في الثناء، حتى خاطبنه :

" بأن من لا" أوبيل " له، لا نحبه".

ثم انتقلن إلى أن " **الطرب الشريعة**، (ولا أرى فيه عيباً !)"

انتظمت رقصاتهن مع دقات الدفوف والطبول، ودققن بنعالهن الأرض رقصاً، وتمايلت

خصورهن تيهاً وطرباً ! واهتزت الأرداف ! وتحشرجت حلاهن على الصـدور، تأكيـداً للمـدح، حـتى خيل للسـامعين أن كل ما قيل ينطبق الممـدوح، كفعل لفاعل حقيقي، وإخبـار مطابق للواقع ! (وأن الإشـارة إلى ذلـك، مجـرد تنبيه).

جال ببصره مع العيون باحثاً عن الممدوح، وسـرعان ما تلألأت أسـنانه المعدنية في الظلام، وقد فغر فاه، إذ دلت أسـارير وجهه على انه المزيد من المدح، أو ربما من أجل هـذا "الطـرب الشعبي"، دعا أهل القبيلة كلهم، فشـعر بـالتقزز؛ وهو ينظر إلى **السي بلحسن** !

منحدر من قمم سلالة المجد ؟

قد يكون... لولا أنه كان يتاجر بـالخمر **الدار البيضاء**، إلى جانب المواد الغذائية، فجنى من عمله ذاك، أرباحاً مشوبة بـالحرام، لا يهمه سـيارة **أوبيل** ! وهـدم بنـاء، وإقامة بنـاء محله.

ثم أخذ **السي بلحسن** الحوض تيهاً وخيلاء. وما لبث أن ند عنه زعيق : " مرحى مرحى !".

رآه في هـذه الأثنـاء يفك عمامته البيضـاء، تقـدم بخطى وئيـدة نحو حلبة الـرقص، فأسـدلها على رؤوس الراقصات؛ وهن يرددن اللازمة تارة،

وتارة أخرى يسايرن الأنغام بمختلف ضروب الرقص السوسي.

شاهده يتقدم نحو **تعزة**، ليسوي العمامة المفكوكة على رأسها، هناك، شعر بالدماء في شراييه، كاد ينهض من مكانه لينقض عليه، لكنه عدل عن ذلك، تحت دافع خفي. قال نفسه : " سليل الكلاب : لا فرق بينه وبين النادلين والنادلات، الذين يتلقون الندامى الحانات".

ذكره وجهه بهشاشتهم !

أخيراً، تنفس الصعداء، إذ غادر **بلحسن** حلبة الرقص، مفسحا المكان للراقصات.

تطلع مع المتفرجين والمتفرجات دلال الراقصت وغنجهن، وبين الفينة يهمس أحد الرئيسين إلى معجبته بكلمات غزلية، فترد عليه همساً، أو تبتسم.

كان أحد الرئيسين : **قاسم بن عدي** !

هاهي ذي الفرصة قد أتت ليختبرها للمرة ما قبل الأخيرة.

قبع مضطرب العواطف مع المتفرجين، بعد أن لم يجد صعوبة في التعرف إليها، بقامتها الرشيقة، ووجهها السافر، من بين الراقصات ليلاً. وقد كان **قاسم بن عدي** بدوره،

يبحث عنها، بعينين ظامئتين، لاشك أنه يريد أن يهمس إليها عن لواعج لوعته هو أيضا. رآه يحاول القرب منها، لكنها كانت تدور في حلقة مستمرة، كأفكاره هذه المفرغة المكررة...

نُقرت الدفوف مجدداً نقـرات أكـثر عنفـاً، وانســـجم الرئيســـان، ثم هـــدأت الدوران.

هنا، مال **قاسم بن عدي** نحوها، تفـرس في وجهها حتى كـاد يلمسـه، فهمس إليها بشـيء مـا. ردت بابتسـامة، إلا أن حلقة الـرقص، مـرة أخـرى، فـدارت معها فجـأة، بعد أن توقفها مع **قاسم**، فراغاً بينها وبين من تليها.

دبت الغيرة في صـدره، فنهض قبل انتهـاء الرقصـة. سـمع بعض النسـوة يعلقن على ذلـك؛ وهو ينحدر نحو داره : "إنهما متكافئان !! ".

إلا أنه عـــدل عن المضـــي، الحلبة، باندفاع جنوني، فاستخرج أخته.

تـوقفت الفتيـات عن الـرقص، لمح **تعزة** ترفع إليه نظــرات الاســتعطاف، إلا أنه بها.

أنت تواجه وضعيتك وحدك.

ألم يتنصل منك صديقك **قاسم بن عدي** ؟

كن مسؤولاً عن الأحداث القادمة !

ثم استدار مصحوباً بأخته نحو المنحدر، إلى بيت والده أعلاه.

قال لها؛ وهو يدرك أنه يكذب، الطريق إلى البيت :

- إنني متعب. ولهذا استخرجتك الحلبة. الرقصة كانت ممتعة ! قالت.

- شيئاً ما، (يداري حاله).

- ألم " تعجبك " ؟

هز كتفيه تنصلاً من سؤالها، ثم قال لأي :

- لم تعجبني كثيراً.

من الأفضل، أن يغادر ساحة **أحواش** مادامت الغيرة تحركت في قلبه بهذا الشكل. من الخير أن ينعزل في بيته على الأقل، حتى الصباح. لم يكن له طموح في مستوى مواجهة فولكلورية أو اثنوغرافية.

أين الحقيقة من الخيال في كل ذلك ؟ هل يصدق عينه أو يكذبها، يلوم نفسه، الآخرين؟

يا له من انزعاج !

حاول أن يضع نفسه في مكان أي بل في مكان أية راقصة : " الطرب الشريعة، (ولا أرى فيه عيبا)"، قول تبريري إلا، للترفيه والترويح عن المرأة التي خُتم

في قمقم من التقاليد. حاول أن يجد تبريراً من عنـده لما شـاهد. غـير أنه عجز عن ذلـك. اجتاحه شعور غامض، إذ لم يستطع دخول حلبة الـرقص، والوقوف وجهاً لوجه، مع الراقصات **والريوس**.

بـدا له كل شـيء تلك الليلة غـير فالنساء اللائي يتظاهرن بالحشمة محجبة وجـوههن **بـأغنبور**، تحللن من كل شـيء **أحـواش** عن طريق اهـتزاز أردافهن ونهـودهن، وأصواتهن التي كانت تعد عـورة قبل قليـل. إنهن ينشـدن الحب مثله بـأي ثمن، لقد تحـررن من سطوة الموانع.

اتجه نحو غرفة النـوم. وفي سـرعة، ملابسه، ثم اضطجع فوق سـريره. ما الـذي من أن يتحرر بدوره؟

ألأنه وقع تحت تـأثير نوسـتالجيا تعـود القهقرى إلى الطفولة. كـانت موسـيقى الطـرب الشعبي لا تزال تتناهى إلى مسمعيه.

ومضت سـاعات لم يغمض له حتى بعد أن هدأ الرقص.

12

استيقظ؛ وقد مالت الشمس إلى كبد السماء، لا يدري متى نام الليلة الماضية بالضبط.

اغتسل، وارتدى ملابسه. وفي سرعة، تناول فطوره في المطبخ.

لا أحد في الدار : أبوه ذهب ضيعة **بتافراوت**. والدته خرجت تحتطب مع أخته. نزل الدرج، فشعر بتثاقل.

وفي طريقه، صادف أمه وأخته عائدتين من الجبل، قال لهما:

- إنني ذاهب إلى **تافراوت** لقضاء أسبوع هناك، عند أحد الأصدقاء الطلاب.

قالتا بصوت واحد : " أسبوع كامل ؟" أومأ برأسه : "أن نعم".

وكثيراً ما كان يتبادل الزيارات أصدقائه من غير أبناء الدوار؛ فهو يعتبر من خرجوا على نهجهم بعد أن لاك **قاسم بن عدي** سمعته كشاب غريب شاذ، وبعد أن

عنه **تاهرة** زوجة **عم بوهو** : " إنه سيتزوج فرنسية صحبته بعد وصوله". تلك كانت تأويلات **تاهرة**، وتعلل ما ذهبت إليه : " إنما صاحبته إلى **أنامر**، قصد التعرف عليه كاملاً ".

كان ذلك، استنتاجها بالنسبة لامرأة تعيش في بلدة مهمشة، محصورة بين هضاب والواحات. وحتى الأصيل يأتيها متأخراً، كأنما تأبى الشمس أن تغرب عنها. ومع ذلك، يعيش سكانها خارج التاريخ.

ذلك كان منتهى استقرائها بالنسبة لامرأة لا تعبر عن كل رغباتها، إلا همساً أو وراء شأن العديد من النساء مثيلاتها؛ فالبلدة، لا تعبر عن نفسها إلا في **أحواش** المناسبات، زيارات تقوم بها السلطات المحلية في المناسبات الوطنية للتنفيس عن الموظفين.

لم يتغير شيء في **أنامر**... لا معبد، ولا مساعدات للسكان المعوزين للبقاء في أرضهم، والحد من الهجرة القروية للتخفيف على المدن.

سار في الطريق اتجاه **أنيل** باشتداد القيظ عليه؛ وهو ينعطف منحدر **تِيسْقِي**. استظل بظلال زيتونة حتى كان في مخرج طريق **أنيل**.

أنيل ! قرية غمست أقدامها في الطين الأحمـر، تسـبح في ميـاه العيـون المانعـة. **أنيل** عين جارية بالدماء، مناصرات شخصية، ثأر قبلي، واسـتعداد للأسـوإ في حـال المس بـالطوطم. سـيطرة على الـري لفـرد إقطـاعي في الوسيط. لا أحد يستطيع مشاركته فيه. **أنيل، عروس الشعر** الحسناء، قلعة مانعة !

مـرت سـيارتان في الطريـق، تنقلاه، فلا هو عمد إلى طريق " أطو سطوب !"، ولا صاحباهما توقفا. ثم مـرت سـيارة **قاسم عـدي**. ولما اقـترب منـه، تعمد زيـادة سـرعتها ليوهمه بعدم رؤيته.

لما كـان **بإغـالن**، تـوقفت سـيارة **تونيس**"، فأشار إليه صـاحبها بالصـعود، فـالتحق به شاكراً إياه.

سأله صاحب السيارة :

- إلى أين ؟

- إلى **تافراوت**.

- تفضل.

فتح الباب، كان يلهث من فرط الإعياء، ثم انطلقت السيارة تنهب طريق **وادي أملن** اتجاه أعلاه- **أفلا- واسيف**.

13

الجنس الآخر يملك إرادة حديدية أشد صلابة من الرجل؛ وإن بدا أحياناً مائعاً، سهلاً؛ فما ذاك، إلا ليزيح الستار عن أنوثته، ذلك الجانب الإنساني الهام، وهو أيضا يعد، بحق، سلاحاً تلقائياً لقلب الرجل الضحية.

كانت **تعزة** تخفي هذا السلاح الثاني، الذي ليس إلا إرادة قوية. ومع ذلك، استطاعت أن تتعلم عادات القرية، بعد أن تركها والدها **أنامر** تحت إمرة جدتها.

لم تبد زوجته أي اعتراض. أتقنت **تعزة** أعمال البنات القرويات : تعلمت كيف تكـرر أركـان، وكيف تطحن آملـوه[11] في رحى حجريـة، تحلب البقرة، تحتطب، إلى غير ذلك من الأعمـال والمهام.

ولهذا، ترك لها العنان، تفعل ما تشـاء محاسب أو رقيب. كانت تعتقد أن إتقان الأعمال، والمهارات، يؤدي حتماً إلى تحريرها بطريقة مباشــرة، لأن القيــام بتلك الأعمــال، لا مسؤولية؛ وحتى يكون ذلك مطابقا لجنسها- تامغــارت- شــيخة، أي ســيدة، ســادت بأعمالها وبمسؤولياتها الجسيمة.

وكانت تقول، إذا ما انتقدت سلوكها إحدى النسوة المحافظات " كل واحدة حارسة نفسـها، بصيرة بالعواقب، فأنا في غير حاجة إلى شـرطي سري يتعقبني".

هكذا ألجمت أفواه الواشين والفضـوليين، إذ جعلت جمالها في يـد، سـلاحاً للفتك بـالقلوب، ولسانها في يد أخرى، معولاً لهدم آراء الخصـوم، فسفهت الأقوال، وانتصرت على كل عقبة كـأداء. علاوة على ذلــك، اكتســبت نوعــاً والاحــترام بين العــوام. فما من حفلــة،

---

[11] **- نتاج اللـوز الممـزوج بـالزيت ونحـوه بعد طحنه بـرحى حجرية يدوية، وبعد أن يحمص اللوز..**

حضرتها، ولا من عرس، إلا تصدرت موكبه ! فغدت بين فتيات القبيلة، كوكباً لامعاً يتلألأ يتهادى مع أنغام الموسيقى الفولكلورية. فما تكاد تظهر بين صواحبها، حتى تتجه إليها العين وحدها، فكأنها شمس **النابغة** " **إذا منهن كوكب** ! ".

لكن...

لم ينفع السلاح الأول الذي هو الجمال، فلجأت إلى السلاح الثاني الذي هو استنجدت بتلك القوة الكامنة في كشرت عن أنيابها، بدا وجهها مخيفاً، عبوساً كوجه لبؤة !

ومع ذلك، يرسم بتكشيرته، وعبوسه، وشراسته، جمالاً روحانياً آخر، غير الجمال الجسدي، جمال قوة كامنة وراء الجسد وتوابعه، في انتظام وتناسق غامضين.

إلا أن العقبة التي واجهتها لأول مرة أيام بهجتها التي تعيشها في **أنامر**، تكمن كيف تتصرف أمام إعراضه، إذ تجاهلها في حفلة **السي بلحسن**، وكانت تتساءل: " ما الداعي إلى ذلك ؟" وما الداعي إلى إخراج حلقة **أحواش** ؟

" أهو تعلقه بمدموازيل **بوديه** ؟"

أطرقت إلى الأرض برأسها واجمة.

لا مفر لها أن تغدو فريسة لمثل هذه الحقـائق الملموسـة. لا أحد ينكر ذلـك، تستطيع بدهائها أن تتخلص منها.

تكاد تعطيه نفسها حينما تصـرفت بطريقة عبثيـة، لتجد شـفتيها تحت تصـرف شـفتيه؛ التي ورطت نفسها حينما صنعت عالماً غراميـاً فكـاك منـه، عالمـاً يلغي كل ما عـداه، المنطق السـائد، فهي الـتي منحتنه يستحق؛ وتحاول الآن التخلص منه أو سحقه عن طريق إثارة غيرته.

بعد قليـل، دلفت إلى الواحة تحمل الدوم، في خطى مسرعة كالمجنونة :

وفي الطريق، خطرت لها فكـرة : سـوف ترقع ما مزقه الحب، وتـرد إلى نفسـها الاعتبـار. وإنها لقلقة تجاه تحدياته.

سـيطرت عليها ظلمـات من والاحتجاج.

ولأول مـرة تجد نفسـها تقف ضد **أرسـطو طـاليس**، وتتشـبث بالمفارقـات... فتنجـذب إلى دوامة من الأفكـار اللامجديـة، حاولت التخلص من العالم الذي صنعته.

سوف تجده هناك...

تحاول عبثاً أن تقنع نفساً تائهة.

اجتازت بعصبية طريقها في منحدر نحو **تادينـــارت**، مخلفة وراءها ثلاث نســـوة تشعر بوجودهن. إلا أنهن بادرنها قائلات:

- **تعزة** ! إلى أين المسير ؟

انتبهت حواســـها المخـــدرة بخيـــارات الحب،ثم التفتت إليهن قائلة:

- معذرة، أنا مشغولة بجمع حشائش !

لقد عـرفتهن، إنهن جـارات لهـا، وشـجت بينها وبينهن، أواصر الصـداقة؛ وإن كن أصـلاً قرى مختلفة، لا صـلة لهن **بأنـامر**، إلا عن اتخاذهن أزواجاً **لأنامريين** !

حاولن أن يتبسطن معها في الحديث، غير أنها تملصت منهن بكيفية لائقة.

وماهي إلا دقائق، حتى كانت أمام الزيتونة الـتي شـاهدت بداية حبهـا. لقد عـانت من فـرط وجد، وشدة التياع ! ... كانت خالية !

مضت الدقائق طوالاً كالساعات.

الانتظار !

وتحـــوم حـــول الخمائل حـــيرى كالظبيـــة، عيناها متعبتان.

الانتظار ... إلى متى ؟

كل ذلك هين ! الإحجام عنه دونه الموت ! ما طرق اليأس قلبها.

إن تعبت العيون، وكلت الأعضاء الأخرى؛ فما زاغ الفؤاد عن مبتغاه، ولا زعزعت الصعاب، إرادة قوية.

ليس الحل أن تتخلص من غرامها، أن تعيشه بكيفية تمردية على وبإصرار.

ترقبت قدومه بين الأشجار. كل تحرك، إلا ورفعت بصرها إليه تحسبه ضالتها !

بحثت عنه بعينيها، هنا، وهناك؛ والشمس تسحب آخر أذيالها نحو الغروب.

انتهى إلى مسمعها تخبط خطوات تنحدر نحوها. رفعت بصرها في التياع : " آه ! أهذه أنت؟"

كانت **زينة** !

زالت الكآبة من جبينها المشرق الوضاء، هشت إليها ضاحكة المحيا. وقبل أن تسألها، قالت **زينة** :

- لم يخرج أحد اليوم، تعبوا من سهرة **السي بلحسن**. أنا إنما جئت أبحث عن حشائش
- كيف حال السيدة **ماماس** ؟
- بخير. قالت **زينة**.
- وأخوك ؟

تنهدت :

- آه ! سافر إلى **تافراوت** لقضاء أسبوع عند أحد أصدقائه.

واحسرتاه ! ابتعد عن القرية العابثة أمام تصرفها الملحوظ أمس، في **بلحسن**.

عادت الكآبة من جديد، إلى فأمسى مظلماً كحجر **الكست** في الليل !

أطرقت إلى الأرض واجمة، بينما **زينة** فريسة لهواجس قاتلة. لكن الإرادة أقوى من أن تستسلم للخيال. بل تفتق ذهنها عن فكرة لم تخطر لها بالبال، منذ أن سايرت الأعراس، وتصدرت حفلات الرقص الشعبي لتزهدْ عن العبث الصبياني، أو ترتمي في أحضان الآخرين المتلهفين، المتهافتين عليها؛ أكثرهم !

صرخ في أعماقها صوت على المفارقات : كفى عبثاً ! " إلا أن ذلك الصوت هو نفسه صوت عبثي !

أتكون هدف الطامعين، وبغية المتلهفين، تترامى نظرات إعجابهم عليها حرى، تتكسر تحت قدميها، ضارعة : " أن ارحمي ! " فبمقدار تبحث عن جاذبية المعقول، بمقدار ما تفقدها.

لا... إن هم إلا كلاب يبصبصون لها :

حتى الكلاب إذا رأت ذابزة

أصغت إليه وحركت أذنابها !

أما هي؛ فلم تكن ذات بـزة وحسـب، ذات جمال أخاذ ! فما بالك بعيون الناهمين تتطلع إلى جمالها البـاهر ؟ فلا يكـاد هـؤلاء ينفـذون إلى أعماقها سـوى شـاب واحد منهم، وهو بغيتها، ومناط آمالها ! غير معقول !

أخـيراً، لها أن تعيش مع أفعـوان تقـترب من هـذين الاثـنين : **قاسم بن** وزوجة الأب !

لن يـتردد والـدها في قبوله بعلاً لهـا، يزيح عن كاهله، مسـؤولية رعايتهـا. غـير معقـول أبداً !

لهذا، التفتت إليه مبتسمة، تتفادى غضـبه، كما ابتسمت له في حفلة الرقص، إذ قالت له في همس :

- يجب أن تسـلك معي مسـلكاً غـير إني لست سافلة.

ابتسم حتى انفرجت أسارير وجهـه، ظانـاً أنه يتلقى عتاب حسناء.

- سأصـلح هفـوتي بهدية تليق المدموازيل. حينئذ، شعرت بالحرج، ثم بادرت لتقطع آخر خيط يربط طريقه بطريقها؛ فقالت :

- إذا أردت إرضاء المدموازيل؛ فعليك أن تمسك هديتك.

- سأحتفظ بها إلى أن ...

- إلى متى ؟ تكلم ! – قالت بحدة.

- إلى حين إعلان الخطوبة !

- مسكين ! ابحث عن غيري، أفهمت ؟

وأخرجت لسانها استهزاء وتحقيراً له؛ وقد شارفت إلى باب دارها، بينما استدار هو، المرسيديس، فأدار محركها، ثم انطلقت مروج الواحة تلفها الأدغال، فلم لمحركها إلا هديراً متقطعاً، وأنينا ضعيفاً !

14

انتصف النهار حينما أخذت سيارة تكابد الطريق العمومي متأوهة مترنحة؛ وقد شارفت **تيسقي**، لتنعطف متجهة نحو **أنامر**.

توقفت في ساحة الحوض.

هرول القرويون والقرويات لاستقبال المسافرين الاثنين اللذين وصلا أخيراً إلى **أنامر**؛ كانا **السي حمو** من **عيشة** !

نودي على **تعزة**، فأسرعت مقبلة. اندفعت تخترق صفوف المهنئين والمهنئات

أن وجدت نفسها بين يدي والدها الذي وصل بعد غيبة أزيد من عامين !

لم تشعر إلا وقد انكبت على يده تقبلها.

اغـــرورقت عيناها بـــدموع الفـــرح اتجهت إلى **عيشة**، البـــديل الوحيد المتوفاة منذ عامين على إثر مرض عضال.

لم تستطع **تعزة** إتمـام تعليمها الإعـدادي بكـوليج **مـيرس السـلطان بالبيضـاء**، لرواية حبكتها **عيشة**، مفادها : أنها رأتها مع " واحد من الشـــبان" تكلمـــه، قصـــدقها **السي حمو** سرعة؛ وسحابة حزن على والـدتها لم تنقشع من جبينها، حتى إن ذلك الحـزن شـغلها يومـذاك، عن إخبار والدها بحقيقة زوجته التي كـانت أمامها عيانـــا. إلا أنها آثـــرت الابتعـــاد وزوجته، وهو الذي يرى السعادة كل السعادة في جبينها رغم تفاوت السن بينهما.

مـــــدت إليها **عيشة** راحتها وكبرياء، انحنت تقبلها، أشارت المرأة بيدها بما يدل على وجوب حمل كل الأمتعة، قائلة :

- عليك بهذه الأمتعة !

أمر مختصـــر ! لكنه يـــبين عن مطلقة تلغي حريتها بمجرد عبارة محدودة.

كيف ضحت بذلك العماء الذي كانت تسبح فيه، وبتلك الفوضى التي تمارسها إلى حين، كيف

تخلت عن ذلك؛ وهي تقبل يد **عيشة**، وتنطاع لتنفيذ أمرها بـالحرف؟ تـوقفت دون أن تمد إلى الأمتعة.

أمر مختصـر... بينما انهمك الفلاحـون إنزال الأمتعة والحقائب. **السي حمو** مازال يجيب عن أســـــئلتهم فيما المغتربين.

عادت تنفذ أمرها رغم أنها تجاهلته بعد لأي ...

انحنت على الحقيبة الأولى، فحملتها إلى سـلة الـدوم المبطنة بجلد غـزال، ثم اتجهت إلى البيت كأية فلاحة شغيلة.

بعد ربع سـاعة، عـادت لتلتقي في طريقها **بعيشة** تتجه بدورها نحو البيت، فحذرتها :

- إياك أن تنسي رزمة واحدة !

كـان والـدها مـازال متكئـاً على سيارته، يحادثه **قاسم بن عدي**. شعرت بالمخـاوف تحـوم حـول قلبهـا، تصـنعت المبالاة. ولما مضى **قاسم بن عدي**، همت أن تسـأل والـدها عما دار بينهمـا، لكنها عـدلت ذلك.

ثم أخذ والـــدها بـــدوره طريقه المنحدر نحو البيت.

كانت تلهث من جراء صعود ذلك المنحدر نفسه، إذ أخذ منها الإعياء مأخذه.

بمجـرد صـعود والـدها إلى الـبيت، أخـذت النسوة يتسـللن نحوهـا، يسـتوقفنها سـائلات صحة **عيشة**. إلا أن حديثهن، أخذ يتشعب : كثرت التعاليق، والتساؤلات، حـول السـبب الـذي من أجله قـــدم **السي حمو**، أهو للاستجمام والراحة. أخذ التساؤل يتزايد، يضاف إليه إفادات... إلى أن اسـتقرت الإشـاعة تحديـداً على **قاسم بن عــدي** ! الــذي ربئ بعد يحادث **السي حمو**.

في خضم هذه التسـاؤلات، شـقت سـيارة أخــرى طريقها نحو سـاحة الحـوض، ثم تـوقفت بعيداً عن سيارة **السي حمو**. كالعـادة، انـدفعت هي مع القرويـات، نحوها في تـرقب واسـتطلاع، كن يضربن الحجاب **بأغنبور**.

وما أن انفتحت الأبواب، حـتى نـزل الأوروبيون، واحدا تلو آخر، ومعهم **عبد المالك**، ومدموازيل **بوديه**.

كـان الركـاب السـتة الآخـرون رجـالاً مختلف الأجناس، يصوِّبون كاميراتهم نحو قلاع دور **أنـــامر** المطلة على الحـــوض شـــاعري، حينما انـــدفعت مـــدموازيل بجراءة، وبشيء من الفضول، نحو القرويات

الملثمات، اللائي يبدون بملاحفهن السود، كغربان ضخمة نـزلت من كـوكب آخـر؛ فـأزاحت طـرفي رداء **أغنبور**، عن وجه واحدة منهن، فـإذا بها وجه ذميم، وعينين عشواوين !

سـمعتها **تعـزة** تقـول بتهكم؛ وقد تحـول فضولها إلى شبه اقتنـاع، موجهة خطابها إلى **المالك**:

- خير لهن أن يفرطن في الحجاب، إن هن جميعاً على مثل هذه الحال !

وتـــركت طـــرفي الـــرداء، تســـتردهما صاحبتهما كما كانا.

وكـــانت القروية تتمتم بكلمـــات مفهومة، محتجة على تدخل هـذا الكـائن الطـارئ فيما لا يعنيه.

وكـان أي تحد من هـذا النـوع، كافيـاً يجعل الملثمات كلهن، يسفرن عن وجوههن أمام الســـياح الـــذين علت ضـــحكاتهم **مدموازيل بوديه**. ولكنهن لم يكتشفن تعليقها.

في هذه الأثنـاء، التقطت المسـامع صـوتاً رقيقاً، يقول بفرنسية طليقة سليمة :

- أســألك بــدوري : هل تعيد لها الأصــباغ طراوة الصبا، وسلامة الحواس ؟

ثم أضافت **تعزة** :

- ما ترينها تفعل لو كانت من سافرات الوجوه الأوروبيات ؟

توقفوا فجأة، اشرأبت أعناقهم إليها، وبدت لهم في ثوبها البربري، كفتاة من بنات روما الغابرات.

قالت مدموازيل **بوديه** بكل برود :

- أنت تحسنين الفرنسية.

ثم عادت تسألها :

- لماذا تستعمل رفيقاتك الحجاب ؟

- الحجاب مرتبط بمقومات هذه البلدة.

تجـاهلت **مـدموازيل بوديه** قولهـا. ثم سمعتها تقول :

- نحن شـــعب، يحب الحيـــاة، بالجمال تمسكه بالقيم !

هي تعلم أنها تبالغ في ذلك. وخيالياً، هنـاك تقاليد تسيطر على هذا المجتمع الـذي يعيش حـــيز جبلي ضـــيق. هي تعلم أن أولئك يجهلن الحرية الأخلاقيــة، وأن هنــاك انطوائيــة، وغـــيرة كاذبة على الأخلاق. هي تعلم أن الأمازيغية ظلت تبحث قرونـــاً عن سادت امبراطورة، وبعد أن أنجبت أبطالاً ساهموا في الفتوحات بشكل مجيد.

ثم التفتت وراءهـــا، فـــإذا بها واحدة من القرويات الملثمات !

لكنها فقط رأت الإعجاب بادياً على ملامح **عبد المالك**. لم تجد مهربـاً سـوى أن تقارن البادية بالمدينة :

- أين العمارات الشواهق في المـدن، قمم **الكست**، وهي تشـمخر إلى عنـان السـماء، تتحدى الأزمان والعصور ؟

وأضافت :

- أين دخـان القـاطرات، والشـاحنات، وأنفاس أنـابيب القـاذورات، من روائح الأعشـاب العطرة ؟

عقب عليها رجل سويسري :

- نحن نشـاطرك هـذا الـرأي، لكن في المدن جميلات مثلك، يا صغيرتي ؟

طابت نفسها إلى ثناء السويسري فأجابته :

- بلى. ولكن شاعراً عربيـاً قـال منذ أكـثر من ألف عام :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية

وفي البـــداوة حسن مجلوب !

قال آخر :

- إذن نقيم في بلـدتكم لنكتشف كالذي رأيناه !

خالفه **عبد المالك** :

- **أنامر**، بلد الجمال، والسلام، ترحب بالضيوف !

- وإن كانوا من صنف **مدموازيل بوديه.**

قال ثالث.

- تماما، لا يهم. قالت **تعزة**. وقد رمقتها **بوديه** بنظرة عاتبة.

انصرف السياح نحو الحوض ضاحكين، بينما ذهبت هي صحبة الحقائب.

ولما همت بحملها، استغراب.

عضت أناملها كأنها أتت أمراً فاستدركت :

- وصلت أسرة والدي !

- الحمد لله.

وكأنها تريد أن تنبهه إلى وضعيتها الجديدة، فقالت

- علي أن أحمل كل هذه الأمتعة وحدي، هناك في البيت أشغال أخرى.

والمفارقة، أن السوسية تفرض نفسها تلقائياً أشغالاً ومهارات حاذقة، معتقدة أن ذلك يحررها من ربق العبودية. وإلا، فهي تتخوف أن تصبح، نظرا لطبيعتها، جارية آبقة، يُبحث في كل مكان، لترد إلى الأغلال من جديد ! لماذا

كذبت؛ والحال هذه، على **بوديه** ؟ هل تستحق النساء تمجيداً أكثر من تمجيد تلك التي تسعى لتحريرهن من سيطرة التقاليد ؟ فلتحرر نفسها أولاً. ومن ثم، اختارت طريق الحب، والتعبير إرادتها الحقيقية، مهما ادعت أمام **بوديه**.

لما رآها على تلك الحال أشفق عليها دعيني أساعدك !".

عادت تعض بنانها حذرة، ثم قالت في رقة :

- الرقيب في البيت !

تساءل بعينين حائرتين، ثم أجابته؛ أدركت مغزى تساؤله:

- سأشرح لك الموضوع فيما بعد.

- لابد أن أساعدك في حمل الأمتعة.

- اترك ذلك حتى أبتعد عن ساحة الحوض (قالت حذرة).

لما مضت، انكب على رزمة وحقيبة، حمل الأولى في يمناه، يسراه، متجهاً بهما نحو بيت **آل العطار**.

ولما وضعهما أمام البيت، انعطف منحدر، في طريقه إلى بيت والده، لرؤية الأسرة بعد غيابه أسبوعاً في **تافراوت**.

15

جلس **سيدي الفاهم** القرفصاء. أخذ يـروح بجريـدة **صـدى الجنـوب**. كـانت الغرفة غاصة بالضيوف. لقد دب فيها نشاط غـير عـادي. كـان منتفخـاً كـوحش يهم أن ينقض على فريسة حين سأله **عم بوهو** مشيراً إلى الجريدة :

- ماذا جد في الأمر يا **سيدي الفاهم** ؟

بسط الجريدة، وقال في افتخار :

- طالبنا في مقالنا هـــذا، بتحرير السوسية من العمل المرهق.

ثم سكت قليلاً وأضاف :

- لكننا- ويا للأسف !- جوزينا بالضرب.

وأنشأ يوجه كلامه للجماعة :

- أيعجبكم هـــذا ؟ أوَ به نجـــازي المفكرين ؟

أراهم أذنه اليسرى؛ وهي لا تـزال محمـرة من أثر الضرب !

سكت الجميع مبدين تأثرهم.

انـــبرى عبد **المالك** من بين الحاضـــرين قائلاً :

- كيف حدث ذلك ؟

أشـار إلى أحد الضـيوف من أفلا واسـيف قائلاً، وكأنما يتهرب من الحقيقة :

- قص عليهم الحكاية من أولها.

ثم تركهم بحجة إحضار الصينية.

قال الضيف: " الحكاية، اعتداء، لكنـني، أعلم من البـــادئ : **أســـيدي الفـــاهم** المجهولون الذين أصابوا أذنه. كنا نسـير معـاً **أفلاّ- واسيف** عند نزول الظلام، لم يكن صاحبنا وصـاحبكم، يحمل في يـده من سـلاح، جريدته هذه : **صدى الجنوب**. نصـحته لأن عن مكـان **العـآمت**، فما قبل نصـيحتي تمادى في غيه، فعاكس سيدة لا أدري أهي متزوجة أم من **العـآمت** . كـان يحلو

أمام الأسوار القصيرة كأنه خطاف من خطاطيف أبريل. وبينما مر أمام سور غير عـال، أُنـزل بهراوة كادت تطـير طربوشـه، لـولا أن جـرى الأمـام تفاديـاً لضـربة محققـة، فجاءته كما تـرون على الأذن ".

قال **أبا الحبيب** في سذاجته الفطرية :

- ترى لو تلقى الضربة بالطربوش ؟

- إذن، لطـارت الـرأس، وفقـدنا ما تحمله رأس **سيدنا** من فهم- قال **عم بوهو**. واستطرد الضـيف: " الغـريب أنه لم يقتنـع، أن الضـرب، إنما جـاء من تـردده على واحة **واسيف** متصابياً بشابات من **العآمت**؛ فكان إذا مر بحانوت؛ ونحن في الطريق إلى **أنامر**، يسأل صاحبه عن كحول، لوضعه مكان الألم، فإذا عما به، قال ما سـمعتم منه قبل قليـل، وزاد مقدمة بقوله : " كنا نسـير في حفظ الله وأمانـه، فإذا بهراوة...".

تقـدم **عبد المالك**، فسـأل الضـيف أحقـاً **سـيدي الفـاهم** هو صـاحب الحقيقي ؟ " تنهد؛ وكانت هيئته، تنم عن بؤس : " بل أنا صـاحبه، بعته **لسـيدي الفـاهم** علب سجائر".

الصوت العادي يصرخ من غور الدار : " يا غلام ! هـات الطـاس؛ فـالقوم ينتظـرون قـراءة المقال !

هل هو حقاً ينتظر مع هذه الجماعة قـراءة مقال ركيك عن تحرير المرأة في البادية ؟ عجيب ! عجيب أن تتحفز المـرأة في هـذا الجـزء المنعزل عن العالم للتحرر.

كـــــان عليها أن توجد متسامح، طموح : الدفاع عن المرأة غير ذي بال في مجتمع متفتح، فالمرأة أصلاً لها قيمتها ككائن اجتمــاعي، واع بــالحق والــواجب، ويفــترض القانون فيه، يكون قد قطع شوطاً في المساهمة في تنمية الأفراد والجماعات.

هــو، لا يقبل عقلاً أن يــدافع **الفاهم** عن تحرير **تعزة** المتحررة نسبياً بامتلاكها مهارات قروية.

بــدا له دون كيشــوطياً ليس إلا، وغادر غرفته مشمئزاً قبل تلاوة المقال.

16

مضى أسبوعان على إقامة **سي حمو** وزوجته **عيشة** في مسقط رأسيهما : **أنـامر** أن الأسـبوع الأخـير والاستجمام، فقد كان بيته محط زيارات ودية وعملية : اسـتقبل جماعة من آل بن عـدي جـاؤوا بحمـار محمل بكيس من السـكر، ومجـوهرات، وأردية نسـائية، اتجه كبـيرهم نحو **السي** اسـتطرد في مقدمة طويلة **عدي**، " وجديته"، ومتانة مشاريعه الاقتصادية، إذ تولى إدارة مكتب لوكالة السفر الجوي، وهي من آخر أعماله الناجحة في **الدار البيضاء**، مائة في المائة. ثم قال :

- جئنا لخطوبة بنت حلال لا يـأتي بمثلها، في الأخلاق وحسن السلوك ...

هنا، نبهه آخر على كتفه، همس له :

- والجمال أيضا ...

ثم استدار المتحدث الخاطب قائلاً :

- أجل، والجمال الذي لا يصان إلا بالزواج، لفـتى شـاب ثـري نبيـل، قلما يجـود زمـان كذلك !

سمعت **تعزة** والدها يقول للرجال الخاطبين :

- انتظروا حتى أستأذنها !

دلف إليها في المطبخ. كـانت عاكفة الأواني تغسـلها، بينما كـانت **عيشة** متربعة أريكة تسـوي من زينتها أمـام المـرآة في مواجهة للمطبخ.

تعـــــزة لا تحتـــــاج إلى والمساحيق والكريمات، لتبدو جميلة في قرية منحصـــرة بين صـــخور وروابي **الكست** أريج العطـور البلدية تفـوح بحساسـيات جنسـية، حتى الحمـير تفضح النسـاء، فتشـرع في النهيـق. أما الزينة العصـرية، فلا يكـاد يلتفت إليها في الجو شبه الصحراوي.

قال **السي حمو** يخاطبها :

- إنك قـــاربت العشـــرين، وقد خطاب من **آل بن عدي** لخطوبتك : ماذا ترين ؟

ارتبكت، نظرت حواليهـا، فبـدت لها زوجة أبيها واقفة على يسارها في تحد وغطرسة، لكنها تمالكت نفسها فقالت :

- لا عيب في الـزواج، إلا أن لي أيضا الاختيار !

رد الأب في ارتباك :

- إني أنتظر قرارك الأخير.

احمر وجهها، أجهشت بالبكاء فاختلط ذلك بنبرات صوتها :

- أرفض الزواج في الوقت الحاضر.

تدخلت **عيشة** قائلة في حنق :

- إلى متى تظلين هكذا، فتاة طائشة، تتصدرين الأعراس، وحفلات الرقص ؟

ثم عادت تقول مؤكدة كلامها :

- جل من في سنك، أصبحن أمهات !

احتجت :

- أتركيني على الأقل أختار.

- وهل ترك لي حرية اختيار والدك ؟

هزت كتفيها دلالة على أن ذلك لا ثم نظرت إلى والدها الذي بقي واجماً كتمثال.

أخيرا سمعت **عيشة** تقول :

- لو كنت اختار، ما اخترت أباك، لوجود فتاة شرسة مثلك في هذا البيت

واجهتها بكل قوة :

- هذبي لسانك، فأنا بنت سيدة فاضلة، كان لتدخلي علي، لولا موتها.

ثم تبع ذلك صوت الجدة العجوز، كلام حفيدتها:

- أجل، ولا كنا نسمح للسان يلوك سمعة ابنتنا الوحيدة. ثم أضافت توبخ زوجة ابنها :

- لو أنت " إنسانة" حقا، لالتصقت بك ابنـــتي، كما التصـــقت بي. وهأنا لن مهما كان.

أجهشت **عيشة** بالبكاء؛ وقد انهـدمت قلعة للصمود لديها.

خرج السي حمو إلى الجماعة المنتظـرين ليقول لهم:

- يا قوم، إليكم أمتعتكم !

حاول رجل بدين يتقدم الجماعة إحراجه :

- يا سيدي، إن الهدية لا ترد.

أجابه :

- لا نبيع بناتنا في سوق النخاسة.

ثم أعادوا الأحمال إلى الحمار، فانصرفوا...

استعادت ذلك العمـاء، وتلك الفوضـى. لم تكن تـدري أن لخطوبة **قاسم بن عـدي** معينـاً يتجـاوز هـذا العـالم الـذي انغمست مكرهة بين صـــــخور **الكست** كاملة، وبين رفضها أية خطوبة أخرى لا تفهم مغزاهـا. تهكمت كثـيراً على عـالم لا تفهمه يفهمها. خلاصة القول أنها تمـردت، تمـردت الأوامر، وعلى القرارات، ورسمت لنفسها مصـيراً قد يصـمد أمـام الأقـدار، وقد لا فيتحول إلى قدر مقدور !

حريتها تنبت من مثل هذه الفوضى وهذا العمـاء، ولكنها تقـترن بنـوع من المسـؤولية، يحد من مطلقيتها، ويدخلها هي نفسها، تبعاً لذلك، في دوامة من المفارقات !

فقـــط، تمردها هو الـــذي نكهتها، يجعلها منفتحة رغم انحصارها بين جبل **الكست والدار البيضاء.**

17

جبل **الكست،** ليست شعبه ممراً لصخرة **سيزيف**. هناك طريق للراجلين، وطريق للبغال، لكن هـذا الطريق الأخـير انمحى بفعل السـيول،

وانتشار الأحراش والطفيليات، وانعدام سير الدواب.

كان في سالف من الأعوام، مصدر العيش لسكان السفح. هناك مدرجات في أملاك خاصة كانت تحرث إلى أواخر الأربعينات، كما أن مدرجات أخرى للكروم والأعناب، وأحطاب **تاسافت**. باختصار، ظل جبل **الكست** مورداً هاماً من موارد سكان سفحه.

ضربت موعداً مع عبد **المالك الشلال** الذي رسم طريقه بالبياض على الصخر المطل على السهول، **وجبال إيغشان**، التي تشكل خلفية للمنظر العام.

شيء رائع أن يدرب الإنسان قدميه صعود جبل في مستوى **الكست**، أن يكون في علمه مقدار ارتفاعه عن سطح البحر.

كان قد نال منه التعب، تعب وهي بجانبه تحت شجرة سدر. قالت له :

- اختبرتك في حفلة **السي بلحسن**؛ فإذا أنت، شخص صعب المراس، غيور. هيهات عزيزي !

ركز عينيه في وجهها، وحرك كتفيها كمن يوقظ فيها إحساس بالنعاس؛ قال :

- إني لكذلك، وماذا بعد ؟

اتجه ببصره إلى الآفاق، في موقف خيل إليهـا، أن بصـره يخـترق الجبـال، يخـترق حوله، ويترامى في أطراف شاسعة من السهول. يـداه، لا تـزالان على كتفيها في إصـرار حديـدي، يؤكد موقفاً سبق أن أعلنـه، وكأنه يـذكرها **السي بلحسن** :

- إن حبنا تعصف به عاصـــفة مصدرها الأنانية.

أطرقت برأسها، فبـدت له كأنما تكفر هفوتهـا. إلا أن " أمـارك"، هـذه الكلمة الـتي معـنى حقيقي ومجـازي، كغيرها من المجـازات، يحيلها على الحـــنين، بل على استطاعتها أن تتخلص من هذا الحنين الرتيب في إيقاعاتـه، والـذي تصـاحبه دمعة أولى، ثم يتحـول إلى شيء ممل. فهل تشفي نفسها من الطرب ؟ المهم أن تعيش معه.

كـانت رائحة السـعتر تفـوح في **الكست**؛ والحطب كومة ملقاة كدليل إثبات في محكمة على الهواء الطلق !

تشبثت كلتا يديها بذراعه القويـة. تنهـدت؛ وعيناها مغرورقتان:

- حرام عليك، أنت آخر حبل أتشبث به !

ثم أردفت :

- خطبني كثيرون، فرددتهم على أعقابهم.

أسكرته كلماتها الحارة، ثم قال :

- ألم تتعمـــدي الإســـاءة إلي **السي بلحسن** ؟

بدا لها كائناً ساذجاً إلى حد استحالة اندماجه في مجتمع منغلق.

ثم شرعت توضح له :

- هــذا ديــدن الفتيــات في **أحــواش** الهفـوات ؟ عنها تسـألني ؟ هي نـزوات مغفـورة هناك، خطايا محببة.

- أنا أغفرها إلا مع **قاسم بن عدي**.

احمر وجهها خجلاً متعمدة أن تسأله :

- أمنه تخاف ؟

سكت قليلاً قبل أن يجيب :

- منه أتألم ليس إلا.

إذا كــان عليها أن تعيش هــذه الــنزوة تلـك، وعلى وعي بهـا، فلمـاذا يحمل هو كل الألم في قلبه ؟ غير أنها استدركت :

- رددته في الأسبوع الماضي.

- كيف ذلك ؟

- تبعني فنهرته.

- ثم ؟

- ثم أرسل قومه يخطبني، فرددتهم

ورغم أن هذه البلدة المنعزلة، والمحدودة بأبعــاد مــا، أو على خط مســتقيم يتجه

الكست إلى السهول الساحلية للمحيط مباشـــرة، فـــإن كل شـــيء فيها يرتبط الخاصة.

أقنع نفسه أن يجعلها تستنفد هذا الواقع، دون إحراجها في أن تفسره.

ترجته في وداد :

- أتستطيع التخلي عن مدموازيل **بوديه** ؟

ابتسم :

- أخذت معها الشاعر **بدر** إلى **فرنسا**.

نظرت إليه؛ وهي لا تصدق.

ما لبث أن اخرج من جيب سترته صـندوقاً كروياً صغيراً من عاج وضعه بين يديها قائلاً :

- هذا يكون عربون حبنا.

أسرعت تفتحه فإذا بها أمام خـاتم ذهـبي، تعلوه ذبلة من حجر.

عانقته جـذلى امتنانـاً بالهدية الثمينـة، تنصلت منه قائلة :

- تا**الله** ما أجملـه ! ألا تـرى أنه خـير سيارة **ميرسيديس**، وإن كان ثمنه قليلاً !

صدرت حشرجة بين أدغـال الجبل فـإذا يلمح **قاسم بن عدي**.

عصـــفت بأذنه موســـيقى لم يعد الإنذار، لكنها غدت تبشره بانتصار لابد منه.

أدارت ظهرها **لقاسم** الذي ظهر فجأة بين الأدغـــال. لما التقت عيـــون الشـــابين، كلاهما في بـــرود، التحية العســـكرية في وسرعان ما اختفى **قاسم بن عدي** سالكاً طريقاً تنازلياً ملتوياً.

تساءلت باندهاش :

- ما الذي أتى بصاحبك هاهنا ؟

برم شفته مؤكداً أنه يجهل السبب. على كل حـــال، عليه أن يتكيـــف، أن ينحل الأشياء والناس، أن يبتعد عن المنطق، وكياسة التجار والأرثميطيقا.

عـــادت تتأمل بنصـــرها؛ وقد تـــألق الخاتم، تابعت حديثها :

- أما زلت مصراً على إتمام الدراسة ؟

- أجل.

- بعد ثلاث ســـنوات ؟ (مســـتعظمة الحقبة الزمنية).

- من المرتقب أن أصـير محامـياً بعد سنوات.

سـكتت مطرقة برأسـها إلى الأرض، لا تريد أن تصل في استقراءاتها إلى المطلق، فطالما يوجد هناك جسد تتشبث به، فالدنيا بخير. تتشبث به دون قصد. وبمقارنة، حـتى يتحـول غايته.

وإذا حاولت التعرف على شاب من **العـآمت**، فليس ثمة من خطيئـة، ولكن الخطيئة تكمن في الرغبة في أن تعـرف. إنها تعـترف تحمل معها صك إدانتهـا، وفي ذات الـوقت، البراءة.

لاحظ الدهشة على ملامحها طمأنتها :

- ستمضي ثلاث سـنوات سـريعةً رواية !

- أكره ذكر الروايات.

- لماذا ؟

- الفصول تتداخل، وتتقاطع لتكون تراجيديا !

الحقيقة أن الجسد، يحن إلى الجسـد، الوحـدة، لكن العـالم ملـيئ بالخيبـات المتتاليـة. سارع إلى القول :

- سأظل وفياً طيلة ستة وثلاثين شهراً.

- أكره أن يكون حبنا قصة خرافية.

- بل حقيقة سيبقى كقمم الجبل.

- أخشى تلك الحقيقة تتمخض عنها تراجيديا.

وفي لهجة حازمة لا تخلو من يزعزعها :

- تصوري أن مستقبلاً زاهراً ينتظرنا. لا أجد الحياة إلا في زي المحاماة الأسود.

كـــان يحلو له أن يطلق لخياله فتهجس به أفكـاره : " لشد ما يشـبه المحـامون الرهبـان أثنـاء الـدفاع والتـدخلات، ثم بعد يلبسون ثيابهم العادية كغيرهم من الناس !".

داعبت خده بأنامل لطيفة، تبـدي ضـجرها في آن :

- إن ستة وثلاثين شهراً، معناها ألف ومائة يوم تقريباً؛ وهي دهـر، تـورق فيه وتزهر الأشـجار ثلاث مرات.

قــال محــاولاً إبــداء ســخريته ليــذلل الصعاب :

- الســـنوات الثلاث هـــذه، تشـــرق الشمس وتغرب، أكثر من ألف مرة !

ردت؛ وقد طغت عليها رغبة ملحة في لهجة مهزومة :

- أخشى أن أنسـاك. كل شـيء يتغـير عالمنا.

- أوه ! كفاك مبالغة !

لما قـرأت بـادرة من التسـاؤل في عينيـه، حذرته :

- لا تسيء ظنك بي؛ فما أنا إلا بنت سليمة الطويـــة، لا يســـلس قيادها للدونجوانات.

هـؤلاء كلهم كـانت قد جـابهتهم بصـرامة مدحورين مغلوبين، حتى إذا رأته هو، ذروة تشرق منها الشمس وتغيب، بعد شعور بالغربة، وانسلال من هـذا المحيـط، إلى حيـاة لا وجـود لها الخيال... حـتى إذا رأته بـدوره غريبـا، يطفو محيطه هذا، شعرت برغبة الدنو منه والاقتراب.

توسلت إليه :

- حـــرام أن تتركـــني وحيـــدة بين الأشجار.

ثم أضافت :

- سرعان ما تتجرد من أوراقها بعد إزهـار، ثم تعود. وخلال الفترتين، أذوب سأماً وانتظاراً.

وتشـبثت بـه. ثم تنصـلت منه فجـرت رزمة الحطب والحشائش تشد عليها بالحبل حزاماً، كأنها قدرها الذي يلازمها حتى تتحرر.

ربما تصـــالحت معه على أســـاس الشـقاء، وعلى أسـاس الـوعي بـه. ربما تنكـرت لأشواقها التي تسـتبد بها الآن، باسـتثناء شـعورها المسترسل في التوحد معه والانحلال.

نظر حواليه، كأنما استفاق من الذهول، كل شيء يبدو دون قمم هذا الجبل ترفعاً. بـدا نفسه حقيراً أمام أعالي **الكست**.

اسـتوى القـوام الرشـيق بعد أن عقـدت صـاحبته شـحنة من الحشـائش والأعـواد ظهرها.

أما هـو، فقـام يتبعها كالظـل. اسـتأنفا طريقـاً تنازليـاً بينما ظلت هي تصـدح سوسية مفادها :

" إلهي كن عوننا". ثم اللازمة.

كـان صـدى الأهزوجة مـازال يـتردد أرجـاء الجبل الهائـل. فلما انتهت من شـعرت بوضـاعة أمـام جـبروت القمم الصـخرية الهائلـة؛ وهي مـازالت تهبط المنحـدرات، وتـردد النداء التقليدي :

- " نعم أين أنتن ؟[12] "

تلاشت الأصـداء، وهـدأ الكـون خطواتهما.

تستطيع أن تتغلب بمفردها على الصعاب الـتي تصـطدم بهـا، وتجعلها خـارج الإنسـانية، باستثناء هذا الهباء السديمي. ماذا تعـني بالنسـبة لها مهنة المحاماة، ولا دراسة القانون، ولا سـيارة

[12] **- نـداء تقليـدي تسـتعمله الفتيـات القرويـات، قصد الالتمام، والتجمع، لكثرة شعب الجبل واتساع أرجائه**

ميرسديس، أو الخاتم الذي كانت تبتهج به منذ بضع دقائق ؟

مازالت لم تعثر على معنى لهذا العالم، لهذه الفوضى العارمة، المليئة المفارقات.

إن ما تعيشه ملموسا من معاناة مع أخريات، هو ما تفهمه تماماً، لا ما ادعته تجريدية واجهت بها **مدموازيل بوديه** التي لم تكترث بأقوالها وادعاءاتها.

حاول إرضاءها :

- الحياة على ظهر الجبل، قصيدة شعر.

حذرته بجدية :

- أنا لا أستطيع الانتظار.

تجاهل ردها؛ وقد بدت لهما دور **أنامر** وهامات قلاعها الحمراء، كسفينة هائلة عباب هضاب **الكست**، في واحة غناء الظلال.

18

انتصب **بورون** نحو حضرات الضيوف في خطى مثقلة بالضجر والإعياء. ابتدأ **بعم بوهو** حاملاً إليه الطاس، فشرع هذا الأخير، يغسل يديه ويمضمض.

لما أتى دور **قاسم بن بورون** من أخمص قدميه إلى قمة رأسه. رنا إلى وجهه كمفتش شرطة، ثم همس في لدي أمر هام، سيسند إليك إنجازه".

هز الغلام رأسه، علامة الإيجاب تلقائياً، لكنه تلكأ عن متابعة صب الماء، فقال له **بن عدي** : " ستأتيني بخاتم **تعزة** الذهبي كان. " سكت **بورون**، كأنه لم يفهم، أو هو فعلاً لم يفهم مقصود **قاسم**.

كان الجميع ينصت إلى بقية المسند إلى **سيدي الفاهم**، بينما **بوهو** فرصة سماع ما دار بين الشابين.

ولما كان **قاسم** مفرطا في الحساسية، ذكياً، يعمل لكل طارئ حسابه؛ فقد لجأ إلى لذة الاستماع على الحاضرين :

- زم شفتيك يا **بورون**، ففي الإمكان يصنع منهما رطل من كباب.

قهقهت الغرفة بأجمعها، حولوا أبصارهم نحو **بورون**، إلا **عبد المالك** الذي بقي فاه كأنه غارق في خضم من الأفكار.

ثم انشغلوا من جديد بقراءة المقال.

ودون اكتراث بهذه المسرحية المصطنعة، تقدم **عم بوهو** يهمس **لقاسم بن عدي** :

- بماذا كلفت **بورون** ؟ لقد سمعت شيء.

- بمهمة لا أظن يحققها أحد سواه

- الخير في صاحبك البهلواني الذي كان يمشي على الحبال.

همس إليه **بن عدي** مدارياً اليوم، كهل، من حقك علينا أن ترتاح".

حاور نفسه : " كان من حقي أن أرتاح كان لي أولاد في مثل سنك ! كنت أغازل أمهاتكم. كل الأسرار مازالت في ذهني؛ وإن غبت عن هذه البلدة زمناً " ولكنه يستجدي صراحة **بن عدي** : " أشجار الزيتون لم تزهر هذا العام، كيف لي أن أرتاح ؟".

دس في يده ورقة مالية، فصمت **بوهو** هنيهة ... ثم طال صمته. لكن **بن عدي** حذره : " الـــتزم الراحة والســـكوت، شد لســـانك يعنيك !".

هدأت الغرفة من ضجيج التعـاليق. الجميع يحتسي الشـــــاي في مهل واطمئنـــــان، **الحـبيب**، فهو ينـاجي الكـأس، مشـغول البـال، يلقي تحذيراته المعتـادة إذا مر أحد أمـام النبيذ، بين آونة وأخرى. كانوا يرونه آثما ويريـدون أن يعـترف بـذلك، بينما يـأبى إلا أن يسـتغرق شـعوره الخـاص بـالبراءة، حـتى **عبد** نفسه، كان يريد منه أن يعترف بذنبه. غير أن **أبا الحـبيب** يحتضن مصـيره، يحـرص عليه على زجاجة الروج من أن تهرق على السجاد الأحمـــــر. إنها لقمينة أن ترتشف بلطـــــف، جوفه، شيئاً فشيئاً، بمجالسة نديم، أو بدون ذلك. وهل يمتلك مصيره ؟ كل ما يـدرك عند فـراغ زجاجة نبيـذ، أنه أتى على كل ما حولـه. وهـاهو يستهلك زمانه، ولم يبق إلا ذلك الحيز الذي يحيط بـه: جـدران غرفة **سـيدي الفـاهم**، وهـؤلاء التعسـاء الـذين لا شـأن له بهم. "الله **سيدي الفاهم** !" لم تعن له هذه العبارة التي خرجت من فم **عم بوهو** يودع بها صـاحب السمر، شـيئا. قالها وانحـدر يهبط الـدرج، ثم

بقية الضيوف يتسللون. استأذن **بورون** ليذهب للعمل مع **قاسم بن عـدي**، فـأذن له **الفاهم**. غادر مع **قاسم** الغرفة إلى بيت **آل عدي**. وفي الطريـق، تصـنع البلاهـة: " أي عمل تريدني القيام به، ذكرني به مرة أخرى" ؟

- لدي مهمة صعبة، وسهلة في نفس الوقت.

- ماهي ؟ قال **قاسم بن عدي.**

- أتعرف **تعزة** ؟

- بنت **السي حمو آل العطار** ؟

- لا يهم. كان جدها عطاراً.

سكت هنيهة، ثم استأنف :

- المهم أن تنجز لي مهمة لديها، ولك على أتعابك مبلغ مالي وفير، فأنا رجل سخي.

حـرك **بـورون** رأسه تخوفـاً، لكنه ما أن استدرك:

- إذا كانت تلك المهمة في حدود الإمكان.

قال **قاسم بن عدي** مغتاظاً :

- قاتلك **اللــه** !أتخفي عــني أســرارك ألست من الـــــــــذين **تيسينت** ؟

ولما رأى تجاهله، قال في حنق؛ وقد اشتد غيظه :

- اغتصبت فتاة هناك، هربت إلى هذه الواحة تستظل بظلالها من عقاب منتظر.

ازداد التجاهل على وجه **بـــــورون**

قاسم بن عدي نبهه محذراً :

- أنت، من أنت، تتظاهر بـزي المضـحكين المغفلين ! أليس الأمر كذلك ؟

كاد **بورون** أن يتهاوى إلى الأرض، فقال :

- بلى !

- ثم تشــترط علي : إذا كــانت في الإمكان، بعد أن وافقت على إنجازها ؟ قال **قاسم بن عدي**

انهار كلية أمام الحقيقة، فأخذ يلح :

- ســيدي، عيِّن لي مــتى ســأقوم وسأكون رهن إشارتك.

نظر إليه محذراً :

- " من بـــاح بســـرنا يعمى سأسلمك إلى العدالة بسيارتي، وأتنصل من أية مسؤولية.

ثم خفف من حدة تحذيره :

- على العكس، إذا لـــزمت ستظفر بمبلغ مالي لا بأس به، إذا ابتعدت عن تجاهلك، وتراجعك ...

تغيرت نبرات صوت **بورون**، فقال :

- سيدي : لم يبق لي إلا أن تعين المهمة، وستكون هينة علي.

- الأمر وما فيـه، أن تحصل على خـاتم دبلة من خنصر تعزة، لا غير، دون هرج أو مرج

- والمبلغ ؟

- لك عشرون ألف ريال.

دسَّ في يده، ورقة من عشرة آلاف فرنك كتسـبيق مقـدم، ثم ضـرب على راحتـه، كإشـهاد على إتمام الصفقة. قال؛ وهو يضع الورقة المالية في جيبه :

- غدا يكون الخاتم في بنصرك أنت !

19

كؤوس الشاي تحتسى. لم يصدر عن **أبا الحبيب** الليلة، تحذيره العـادي : " رفقـاً بهـا، بلغ **السيل الزبى**".

فقط، شخصان لم يحضرا الليلة : **بورون وقاسم بن عدي**.

سأل **بوهو سيدي الفاهم** عن **بورون**، فقـال : " إنه يعمل مع **آل العطـار**، وهم سيقومون بتموينه مدة أسبوع". وما لبث **عبد المالك** أن تسـلل بـدوره، ملاحظـاً الشخصين.

الظلام يعترض طريقـه، اسـتعان بمصـباح بطاري يكشف به معالم الطريق. وانحدر يخـترق أزقة **أنامر** الضيقة...

أنـامر في الليـل، هبـاء في قبة السـماء، وظلام دامس كـونـي على الأرض، لاسمها في الليلة الظلماء !

وفي طريقه إلى بيتـه، لمح ضـوءاً بطاريـاً يتكسر على وجهـه. رد بالمثـل، إلا أن الضوء، لم يترك له فرصة التعرف على صاحبه.

اقـترب من دار **تعـزة**... عـادت مسمعيه رنات منذرة تعـوّد عليهـا، توقـف. تـأهب لكل طارئ:

هاهنا سطع الضوء الـذي لم يتـبين صـاحبه بالضبط !

لكن، ما عسى أن يحدث في ليلة دامسـة، وفي قرية محافظة مسـالمة، نـام

سكون- كما تعودوا- لا يستفيقون من سباتهم إلا حين **أذان الفجر**؟

شـيء سـخيف أن يفكر مع سـكان القرية في حرية ما. هم يقولون على مدى : "هناك شرذمة من الأشرار، رأس كل بلاء !".

ولطالما تسـاءل بـدوره : " بمـاذا تتحقق تلك الحرية مطلقـاً ؟ وإلى أي مـدى يشمل انبساطها وسيادة قيمها ؟".

إذا كـان الهـدف هو أن يكـون وحسب، لذات المحاماة ليس إلا؛ فهو إذن، يغدو عبداً لحرية مأمولة. وتلك إحدى النقط الرئيسـية التي تكشف مفارقة هامة في هذا الصدد.

أرهف السـمع، وبين آونة وأخـرى، يسـمع أحجاراً تتدحرج. ثمة إذن كائن متحرك ينحـدر الأزقة المظلمة.

- قف ! من أنت ؟ "

لا أحد يجيبـه. أخيـال ذلـك، أم حقيقة يستطيع أن يكذب حواسه، فهو سليم البدن !

أخذ يشمئز من شرذمة **سيدي الفـاهم بورون** لم تعد تعني له شيئاً. أكثرهم يسـتولي على بجد، وينتظر الشـقي تـبرير حريته بـذلك التسويف المبني على غد. إلا أنه يظل عبـداً الهواجس والخواطر، ولذلك الغد بالذات.

وماذا يمثل هؤلاء وأولئك **لبورون** سوى بؤس على بؤس، وعجز على عجز ؟

الضوء يخترق وجهه مرة ثانية، ويرمي بضوء مصباحه اتجاهه عبثاً دون أن يتبينه !

وفي حزم، وحذر، صرخ بملء فيه :

- " قف ! من أنت ؟ ما قصدك ؟ أتريدني بالذات ؟ انكشف لي، وإلا فأنت جبان !!".

ذهب كلامه هدراً، صيحة في واد؛ ولا لمن تنادي !

له أن يمتح من الأوهام الجامحة تتوقف إلا عند الفناء، وله ألا يكترث إلا بصباح يعطي لبلدته معناها الحقيقي. **أنامر** هذه الليلة الدامسة، ليست إلا ظلاماً في يا لغربته القاسية !.

الكائن المتحرك يدحرج الأحجار، كضبع ضالة مضلة.

ثم ابتعدت الدحرجة عن دار **تعزة**، أملاً في طريق الكشف عن الكائن انحدر بدوره؛ ولم يشعر إلا وقد وجد نفسه في الطريق العمومي المخصص للسيارات. عَبَر الطريق في اتجاه الحقول، فاصطدم بسلة بقول حتى كاد يسقط. سمع **عم بوهو** يقول حركة مسرحية : " رويدك يا أستاذ ! " سأله ألم يمر أحد هنا ؟ تصنع الجهل : " في هذه

الساعة لا ... ". انقض عليه يمسك بتلابيبه : " لا ينفعك إلا ذكر الحقيقة أيها البهلوان العجـوز الذي مر هنـا؟ " انـزعج، إذ خـرجت الكلمـات فيه متقطعة : " **قاسم بن عــدي** هو الــذي من هنا ؟".

خلَّى سـبيله. عـاد يغـير طريقه نحو **أنامر**. فلما وصلها، لم يجد أحداً هناك. جلس على حافتها يصـغي إلى قعقعة الضـفادع يقاطعها خرير الشلال، بينما يكـاد مسـتوى المـاء فيها مترين ونصف المتر.

البركة في الليل، لوحة تعكس جـزءاً قبة السماء؛ بمذنباتها، وبنجمها المـداري، قبل تحل **فينوس** متلألئة، تعلن عن فجر مـا... لاشك أنها الآن، تتعــرى في خلوتهــا، تكشف تستحم في الهباء.

20

مضى النصف الأول من الليل، حينما تسلل **بورون** إلى السطح، حيث تنام **تعزة** فالوقت صيف. وقد كان قبل ساعات، الصباح تماماً، حوالي العاشرة، يتسلم خمسة آلاف فرنك من **السي حمو**، قد أوصاه بحفر **بحيرات** الزيت، وقلب تربتها، على أن يمون طيلة أربعة أيام، وبنفس اليومية؛ وهي المدة التي حددها له **بورون**، كأجل لإنجاز عمله. وكان **السي حمو** قد أخبره؛ وهو يصعد إلى سيارته مع زوجته **عيشة** :

- أنا مسافر إلى **البيضاء**، كلفت **تعزة** بأن تقدم لك الوجبات في أوقاتها.

- شكراً لك يا سيدي، وعودة بحول **الله** !

وانطلقت سيارة **السي حمو** في منحدر نحو **تارشـــتالت**، متخـــذة طريقها **أملن** إلى **تافراوت**...

اختــار **بـــورون** ضد عالمه الهــادئ **تيسينت،** أشياء وأفكاراً كثيرة، حينما تمـرد دون أن يعي حتى تلك الأفكار المتصلة بالنزوات وبالاســتيهامات. وهــاهو يقر بما آل إليه يوافق على الخصي الذي مارسه عليه النخاسون بالقوانين التي بمقدار ما تهبه حرية ما، بمقدار ما تحد من حريته، فيتمرد، ويحاول التحرر، وينغمس في أهوائه الخاصة حـتى الأذنين. فبعد عمل كامل في حقول آل العطار، دخل الغرفة الخارجية المخصصة للخدم. " لا رجل في دار **آل العطار** !"

وكانت العجوز قد نقـرت البـاب، مؤذنة بأن يحمل إليه أواني الطعام الجاهز : كان عن طـاجين، ورغـائف ريفيـة، وأجهـزة الشـاي. سمعها تقول له :

- **بورون** ! إليك يا ولدي طعامك !

بسمل متظاهراً بتقوى كاذبة.

ثم أضافت العجوز :

- فرغت **تعزة** من طبخه منذ ساعة.

- طيب !

سمع خطواتها؛ وهي تهبط الدرج.

التهم ما يكفيه من الطعام، ثم عمد إلى الشـاي؛ وله طريقة في تناولـه؛ فلـون الأولى، لا يفرق عن لون القهوة لكثرة غليه على المجمرة.

تنـاول أربع أكـؤس متتابعـة، ثم جهز إبريقا ثانيا بالنعنـاع، تنـاول منه كأسا واحـدة. ثم العجوز :

- أن احملي الأواني وأجهـــزة رحمكم **الله**.

وضـعها بنفسه جـانب البـاب الخـارجي، متظاهراً بالحياء، وعدم الاهتمام إطلاقاً بالنساء !

ثم سـمع العجـوز **وتعزة** تأخـذان الأواني قصد غسـلها وتجفيفها من جديـد. لم يعد بعد ذلك لحركاتهما وقعاً.

لقد هدأ كل شيء.

شعر بانتعاش، إذ تاه فكـره في خضم مدلهم. كلما حاول الوصول، أو الإمسـاك ما، تاه في غمرتها.

ما أشد غمـوض الزمـان ! فليعتمد شجاعته في متابعة المغـامرة ! سـار بحـذر السطح العلوي باحثاً عن أمتعة **تعزة**. غمغم : " المهمة شاقة، وقد تورطت فيها".

سـتكون حاسـمة في تقرير مصـيره، سـيتحرك إلى الحـدود الـتي تضع أجلاً

لحريته، إن لم يعاقب على تهوره. المبلغ مغر : مائة ألف فرنك ؟ أجل، تضاف إلى خمسمائة ألف فرنك أخرى، ملواة على خرقة سرواله. ولتكن؛ فلن يرده رادّ، ولا تحقيقها ! وهو، ذلك الصحراوي الشرس، الذي يرتقي مراقي النخيل السامقة ! وكيف به الليلة، يشك في بلوغ مرامه؛ وقد اجتاز الدرج المبنية من لبن وأحجار، سقوفها من جذوع نخل وجرائده ؟ العفة لا تحتاج إلى سلوك وقواعد، لأن تلك القواعد والسلوكات، إن هي تبريرات.

قدم خطوة، أخر أخرى. ماذا ؟

تذكر أنه ارتحل من **تيسينت** ارتكابه جريمة اغتصاب، لما افتضح السكان، وشاعت قصته لدى السلطات المختصة كمجرم شرس منحرف لا يفارقه العنف.

كان يتستر في زي " خادم" مغفل، خامل الذكر، تعينه بشرته السمراء على القيام بدور مسرحي في الخداع ! لأنه لا يستطيع أن اللوم على الظروف، وإنما على نفسه، بخصوص فعلته في **تيسينت**.

عاش بهدوء وسلام بين **الأنامريين** الأسخياء.

ترى، لو كان بقي في بلده على براءته الأولى، لتعاطى ضروب الكرم والنخوة، ولضاهى هؤلاء المغرورين القابعين كالحمائم في سفح **الكست**. لا يعملون بجد؛ إلا وهم في طريقهم إلى **الدار البيضاء.**

ولأول مرة، شعر بحقارة نفسه، وبمطارق ذنبه الأول، تهوي على رأسه المحلوق، يشبه حجراً كروياً.

ماذا ؟

هو موضوع للمطاردة، العدالة تبحث في بلدته **تيسينت**. غداً يتابع أنى كان.

تراجع باحثاً عن مشاعر الصفاء. إلا خاف أن يسلمه **قاسم بن عدي** إلى العدالة، فهان عليه الإقدام على ارتكاب سابقة "وتهون،غير شماتة الأعداء !". لقد تصور كيف يتشفى به أولئك شماتة؛ وقد القبلي مبلغه، على إثر تلويثه سمعة عائلة كبيرة من **تيسينت** وتمريغها في وحل العار. وهو، هو، ذو نفس حرة أبية، صقلته الصحراء، فيه بواعث الطموح، والعزة والكبرياء !

هو يلوم نفسه، ولا يلوم الظروف.

وتقدم بخطوات حذرة نحو مقصده، أغمض عينيه. لن يأخذ إلا الخاتم ! اضطرب تحت

ضغط لا يستطيع مقاومته. في اعتقاده، أنه لن يقدم على ارتكاب جريمة أخلاقية مرة ثانية.

لأول مرة، شعر بعطف نحو **أبا الحبيب** تذكر ما كان يجيب به موبخيه : " للضرورة أحكام". ولكنه هو، يلوم نفسه، ولا الظروف. هذا هو الفرق. ولسبب ما، يجهله، وجد نفسه يردد معه : " رفقاً بها، **قد بلغ السيل الزبى** !".

فتح عينيه، فارتمى بصره على **تعزة** وهي مستغرقة في نومها : كان وجهها تأمل قوامها، تشاغل به هنيهة، حتى كاد ينسى شعوره بالذنب، والمهمة التي تخطى حرمة الدار من أجل إنجازها.

وأخيراً، استقر بصره على نضد رأى صورة **عبد المالك**، في إطار صغير، وبجانبه صنيديق الخاتم...

تقدم بتؤدة وأناة. قنّع وجهه الصحراوية الزرقاء. وفي خفة، انتزع الخاتم من الصنيديق. استدار في سرعة، تأملها وهي لا تزال تغط في نومها.

الجريمة الأخلاقية الأولى التي تحمّلَها بلوم نفسه، قبل لوم الظروف، ما كانت لتقع مباشرتها، لولا **تيسينت**، تلك التي قيل إنها من الحسناوات السمراوات، أكثر من غيرتها على

الحسنوات الشقراوات. ومع ذلك، تحمل الجريمـــة، فنسي **تيســـينت،** وشمســـها **وبحيراتها**، وحسـناواتها، تحت وطـأة القـوانين المعمـول بهـا. أما تفاصـيل وقـائع الجنحة هنا ليلته هذه، فلا يرى أنها ترتبط بمنطق كامل، ليس فيها إغــراء متبــادل بين الطــرفين، لينــدفعا **بحيرات** الفصة، ليحصل مـاهو حاصـل. هنا فقط جسم ممدد في نعاس.

تـــرى، هل كـــان واعيـــاً **تيسينت** ؟

تحمل وزر جريرته. زادت أوزاره، فأمسى تعبـان منهوكـاً. لـوى الخـاتم ببسـاطة في طـرف عمامته المتـدلي. عندئـذ، تقلب القـوام الرشـيق النـائم، فزعـزع ثبـات الصـحراوي الحـاذق؛ اصــطدم **بتــاغرة** الحليب النحاســية، إذ الفتاة تبيتها بجانب رأسها، لتحلب البقرة في الفجر. رن صـوتها، فاسـتيقظت، هبت واقفة ذعر لما لمحت شـــبحه يختفي وراء تستطع تمييزه، فصرخت :

- واجدتاه ! اللصَّ !اللصَّ !

بسملت العجوز التي كانت تنــام في السطح؛ وفي ضجر وانزعاج، أجابت بدورها :

- ماذا دهاك ؟

كانت لا تزال ترتعد مضطربة حينما ردت عليها :

- لن أنام وحدي. اللص ! اللص رأيته !

- لا داعي للمبالغة، بلدتنا آمنـة. اللصـوص في المدن (تطمئنها)

استيقظ الجيران على إثر الصراخ.

ثم نادت العجوز : " **بورون** !".

*****

قال شيخ : إنه سمع وقع خطوات تتدحرج في الزقـاق. وزادت" **تعزة**" بأنها فقـدت خاتمـاً ذهبياً.

تجمهر القرويـون عند بـاب **آل العطـار** واسـتعملوا المصـابيح البطارية في الكشف المجرم المفترض.

21

منذ الصباح، كان رجال الدرك يقفون في **ساحة الحوض**. قلما يألف سكان **أنامر** مشاهدتهم بزيهم الرسمي، سوى المناسبات، فيضفي ذلك على البلدة رسمياً مهيباً. " لا بأس !" " كانت محاولة فاشلة !". " الخاتم"، بندقية الصيد، رجعا مكانهما" لكن أحد رجال الدرك أمر **المقدم**، بإحضار البندقية والخاتم والعمامة **وتعزة** !

نشطت تعاليق النساء الفضوليات : " الخـــاتم، جاءها من **عبد المالك**، شـــاب ومفلس !" عضت الكثـيرات على نواجــذهن أية حماقة ارتكبتها **قاسم بن عدي** !".

أخذ الــدركي ينــادي على الشــهود. كــان أولهم عليها. ما كادت **تعزة** تراه تلك الليلة، يبحث مع القرويين عن اللص المفترض، حتى أسـرعت ترتجف : " عزيزي: سرقوا الخاتم !".

أحس حينـذاك أن آماله تتبـدد. ضـحك عمق نفسه، ترك وراءه كلام القرويين وإشاعاتهم. تضاربت الأقـوال: تـدعي **تـاهرة تعزة** عرضة لمحاولة اغتصاب. وهناك من يقول : ذلك مجـرد أوهـام. وقـالت إحـدى الجـارات تلك مأساة البنات اليتيمات ".

وكـانت العجــوز قد دقت غرفة **بــورون** لكن أحداً لم يجبها، ثم انتبهت إلى أن البـاب مغلـــق. دخل جـــار، فلاحظ أن الغرفة تســاءل : هل بــات **بــورون** الليلة في أجابت العجوز : لعله بات عند **سيدي الفاهم**. وكان الجميع يبحثون عن اللص المفترض.

شــعرت **تعــزة** بالمهانــة، فبكت كثــيراً. وبتــأثر، تركها ليــذهب إلى جــدتها يطلب

تمكنه من بندقية الصيد. بعد لأي، اكتُشف أنها سرقت هي أيضاً.

انحدر في سرعة نحو الخرائب، يبحث عن اللص المفـترض، رما بمصـباحه هنا وهنـاك جدوى. أغلب سكان القرية يبحثون. مضت ساعة دون نتيجة. فقط، القرويـون رجعـوا إلى بيـوتهم، أحكمــوا إغلاق الأبــواب. أما الجــارات، فكن انتقلن إلى بيت **آل العطار**، يـثرثرن في التي هي مرشحة لكثير من التعاليق.

لا منفذ للص إلا الطريق العمومي !

وفي إحـــدى الخـــرائب المتطرفة الدوار" سمع حشرجة. تقدم نحو مصدر الصـوت. وما كاد يخطو نحوه، حتى رمي بالحجارة ! فكمن بعد أن دحـــرج صـــخرة في انحـــدار العمومي، مما جعل الحجارة تنهال على الصـخرة المتدحرجة بدون انقطاع !

اتكأ على جـدار قـديم؛ وقد تـربص بـاللص المفـترض، والتصق به كأنه عمـود. وبعد هنيهـة، سمع الشخص المختفي ينحدر في اتجاه الواحــة؛ وقد تقلد ببندقية الصيد !

هاهو اللص سيختفي في أمــان ! لن يفلت. سيستعمل معه ما تعلمه من أساليب

المصارعة. لكن، ما الحيلة؛ وفي يديه بندقية ؟ وكيف الاقتراب منه؟

انحدر الشخص المجهول بسرعة نحو واحة **أنامر** ذات المنحدرات والهضاب الملتوية.

لم يكن يخـــاف الأســـوأ؛ بل كـــان حدوث شـيء مـا، منذ أن اشـمأز من منـاخ **سيدي الفاهم**. وكان يزيد من شدة هذا الإحساس، ليل **أنامر** تبعـه، ومن خلال الأشـجار، تعرف على شخصه : هو **بورون**، ولا أحد سواه ! الأمر لا يتعلق بسرقة. اختطاف إذن ؟ اغتصاب ؟ انفجرت ثورته في ظلام **أنامر**. سخر من نفسه؛ وهو الـذي يشـتاق إلى أن يـدافع عن المظلـومين يومـاً، أن يوقف المشـانق عن الرقـاب. صـاح صوت من الأعماق " الكرامة أولاً !".

انـدفع يتبعـه. وهنـا، خطـرت له فكـرة انبطح في مرتفع حقل مرصـــوص بالحجـــارة، بينما أخذ **بـــورون** الصخري الذي يشبه الدرج. وفي سرعة، تبث مصباحه البطاري في مرتفع الحقل، تركه تجاه **بورون**، ثم رماه بحصوة صغيرة، فانبطح بعيـداً عن المصـباح. ركز **بـورون** البندقية المصـباح متشـاغلاً به دون أن يطلق وفي خفة رياضية، انقض عليه، أمسك البندقية فصوبها تجاه الهواء، فخرجت العيارتـان هبـاء،

لواها في يديه في حركة بالمصارعة. وجد بعدها **بورون** نفسه، مشدوداً إلى ظهر **عبد المالك** وسرعان ما طبق عليه العمامة يريد شنقه بها. إلا أنه لم يمهله ليحكمها في عنقه، فرماه أرضاً. قام **بورون** يعيد الكرة، وقد دبت المشاكسة والعنف، التحم معه **عبد المالك** ثنى نصفه، ثم بضربة ركبته أقامه، وأهوى يديه على عنقه حتى كاد **بورون** يسقط من فرط الإعياء. ثم استرد أنفاسه، فتماسك ليطبق أسنانه كآخر سلاح للمقاومة ! اتكأ **عبد المالك** على عنقه بساعده الأيمن، فلواها، ولكن **بورون** أطبق أسنانه باستمرار، مما جعل **عبد** يدفع به في حركة رياضية متدحرجاً في منحدرات الحقول، فخلص عند ذاك إلى ساعده المنهوش؛ وقد شعر بالألم، ثم انهالت عليه الأحجار جديد؛ وقد أطلق **بورون** ساقيه للريح.

لهث **عبد المالك**؛ وقد أقبل مصباحه البطاري كل القرويين على إثر سماع الرصاصتين من بندقية الصيد. تساءلوا عن هوية اللص. أخبرهم : " كان اللص، هو **بورون** وجاء من يقول إن **بورون** التجأ إلى دار **الفاهم** يستجيره فأجاره.

سلم البندقية والعمامة **لتعزة** في انتظار قدوم رجال الدرك، ليعود أدراجه إلى البيت.

هل كان **بورون** يود قتله ؟ هل كان يود الانتحار ؟

تعــرف القرويــون على صــورته عشرين صورة في الورقة التي بسطها الدركي أمــامهم، كــان اســمه، كما هو مســجل السـلطات:"**ابريك بن أحماد بن الطـالب علي**".

التفت الـدركي إلى **قاسم بن عـدي** عليك أن تصاحبنا لمواجهة **بـورون**. لقد اعـترف بكل شيء. هو الآن في المعتقل الاحتياطي"

استسمحه أن يأخذ سـيارته، لكن الـدركي أفهمه: " لا داعي لذلك، تفضل معنا في الجيب".

وكان الـدركي قد تسـلم البندقية والخـاتم والعمامة ورخصة الصــيد من **المقــدم** تقـدمت **تعزة** لتـدلي بإفادتهـا. إذ كـان يعتقد الخاتم **لقاسم بن عدي** حينما سألها:

- أية علاقة بينك وبين **قاسم بن عدي** ؟

- لا شيء.

قـال : " لعله المـدبر الرئيسي للاسـتيلاء على الخــاتم". لكن **تعــزة** أوضـحت أن الخــاتم يخصـــها، وأنه هدية من
نربطها به علاقة صداقة. وربما تتطور إلى خطوبة. وعدها الدركي أنها ستستلم المحجوزات بعد الانتهاء من الإجراءات.

هذا ما كانت نساء الحي ينتظرنه، ليسدلن الستار على التكهنات !

وكـان **سيدي الفـاهم**، قد أثـار سـخرية الـدركي، حينما أخـرج صـحيفة **صدى الجنـوب** وحينما عجز عن تحديد مهنته بالضــبط. وأخــيراً، أجــاب أنه يعيش من أتعــاب زوجته الفلاحــة. أما **تعــزة**، فلم يخطر على بالها أن يكـون **بــورون** بمثل تلك الخســة، فيتجــرأ على الصــعود مضـجعها فـوق السـطح العلـوي، ليسـتولي على الخاتم والبندقية.

وتســاءل **عبد المالك** بــدوره اندثرت المآثر والنعرات، بخـروج الرصاصـتين، بتلاشي العمامة ؟"

يصــعب إيجــاد علاقة بين هــذه الواقعــة، والطريقة الـتي أصر على تقـديم الخـاتم **تعزة**، إذ يقف على طرفي نقيض مع العمامة، والبندقية، وحتى **المرسيديس.**

مجرد فانطازمات !

22

لم يستطع أن ينام تلك الليلة. بدا له والده كالمقـامر ! آخر ورقة يلعب بهـا، هي ما تبقى أشجار الزيتـون. والبقية الباقية من شـجر اللـوز، رهنت لعائلة **بن عـــــدي**. أحس تطبق على عنقه كأخطبوط، لا تترك له منفذا للتنفس، أولا يتنفس مع الأنفس. استفحلت الأزمة عندما استغني عن والده أخيرا في **تافراوت**. وكان قد ألقى على **زينة** بعد أن رجعت من حفلة نظمتها القبيلة مع بعض أفراد **العآمت** من الـدواوير المجـاورة؛ بمناسبة زيارة سـفير دولة كـبرى **لـوادي أملن**

مصحوبا بالسيد **العامل**. قالت له بعد أن سلمت الحلي التي استعارتها، إلى جارتها :

- أجميلة مدينة **الدار البيضاء** ؟

- جـداً، ولمـاذا هـذا السـؤال ؟ جبينه).

- بعد أيام أسافر إليها (ازدادت دهشته).

أخذت سوادات الغلس تنقشع،حينما سمع أمه توضح:

- **زينة** بنت محظوظة، ستعمل مع عائلة **السي حسن**، ستسافر معها من **تافراوت** إلى تلك المدينة الكبيرة : **الدار البيضاء**.

لعله حينـــــــــذاك

الفولكلوري الذي بدأوا يضفونه على قرى **أملن** البئيسـة. وإلا، ما كـانت الهجـرة لتتـوالى المدن. بدا له أن هناك عـدم التـوازن، وأن البادية أخـذت تشـكل عالة على المـدن، نفسها، طالما عجزت عن أن تتمتع بالاكتفاء الذاتي، كما كانت قبل. أطفـال في سن يهاجرون القرى، إما نحو دراسة متقطعة، وإما يشتغلون غلمان بقالات. **أحواش** في كل مكـان، وفي كل مناسـبة. وبـدون ذلـك، (سـحابة صـيف تقشّع) : " كلام الضيف، بحال شتا في الصيف".

ألم تخبرك **تعزة** أن الأشـجار تـورق مرات على أكـثر تقـدير، في ثلاث سـنوات؟

أختك ترهن حريتها، بعد أن أفسد **العآمت** عقلها، فحضرت في **أحواش** رسمي، لأنك أنت السبب، تتهـــرب من العمـــل، تحلم بمجد لا **يوتوبيا**، في مدينة فاضلة ! تلك كانت الزيـارات الرسمية...

سواك أنت سبب هذا البلاء !

... ثم وأنت تصـير ذلك المحـامي النـاجح، المشـار إليه بالبنـان، فـإذا بقائل يقـول في ســمعتك: " أخت الأســتاذ **عبد المالك**، لدى عائلة **السي حسن** ! ... ثم وأختك تساق خادمة إلى مصير مجهول، تتقاذف بها أيد قاسـية، تزجرها فـــتزدجر، تـــدوس كبرياءها دلال !

أنت يغيظك أن تســـــــتعي المجوهرات، أيام المناسبات. كيف بك غـداً، يرمى إليها بثوب، أقرب إلى البلى منه إلى الجدة ؟

قفي يا **زينة** قبالة البـاب، أرهفي السـمع إلى أن يدخل الولد سيارته، اذهبي إلى البقال، ثم والبقــال يختلس منها قبلاً، بعد أن يملأ مســمعيها غزلاً وثناء (من هذه الخادمة السوسية يا **محماد** ؟)

إنها ابنة **السي فـاتح**، أخوها محـام. أنت وأختك وأبـوك إذن، في مجتمع يكـرس العبوديـة،

سواء في **تافراوت** أو في **الدار البيضاء**. حقا أنت لا تهمك النعـرات القبليـة، ولكنك لأول تحس، وبمنطق تام، بنوع من التمرد يشتعل بـداخلك، يمنح لقـرارك الحاسم قيمته ومغـزاه. حقـاً إنك لست في مواجهة منـاحرات شخصـية، قـــدر ما تبحث عن مخـــرج حقيقي، إنسانية مطلقة. إنك في عراك، مع واقع يتحـداك بذكائه ومكره.

أهل بلدتك كأهل **إسبارطة** تقريبـاً، **كالسي حسن**، إلا من رحم ربك. محظوظة أنت حقا يا **زينة** !

التفت إلى والدته، فقال دون اكتراث :

- أخـتي **تائهة** الآن في **أنـامر**، وقد أكثر في **البيضاء**.

- ستزورها نهاية كل أسبوع. تقول والدته.

وجاء قراره الحاسم :

- أختي لن تكون خادمة ما حييت.

حاولت **ماماس** تلطيف الموقف :

- في الحقيقــة، ســتقيم مع عائلة **حسن**، ولهم بنات كالبدور !

انفجر :

- هذا رأي نسائي.

في هذه القرية، نساء متأخرات أكثر من رجالهن. لا يرى في الحقيقة بـوادر التقـدم إلا وجه **تعزة**؛ كان يتخيلها من غير هذا العالم.

عاد في إصرار وعناد :

- لن تذهب أختي إلى **البيضاء**.

التصـقت **زينة** بعمـاد السـطح العلـوي واجمة لا تنبس ببنت شفة.

بعد قليل أفهمته أمه :

- إذن، فلن تصير محامياً.

كأنما تريد أن تنبهه للمـرة الأخـيرة الوضعية التي آلت إليها الأسرة، حينما أوضحت :

- أبـوك ليست له تجـارة لتمويلـك. قد أفلس تماماً !

(حريتك من أجل الكرامـة، أو كرامتك أجل الحريـة ! ولا إحسـاس بالأسـتار الـتي تخفي جمال **تعزة**).

ظل في إصراره متشبثاً برأيه :

- سأتولى الأمر بنفسي

حذرته **ماماس**، إشـفاقاً عليه الأسرة :

- عائلة كبـيرة، ورزق كـريم، أبعد **الله** عيون الحاسدين !

احتد :

- ماذا تعنين ؟

- **السي حسن**، شخص لا يستهان به.
أخشى أن تفوت الفرصة على زينة.
خرجت زينة من صمتها:
- فرصة ماذا يا أماه ؟
انفجرت الأم :
- أنت لا تملكين دملجاً كاملاً؛ فالسوار المتحلق حول معصمك، دائرة معدنية غير كاملة المحيط، إن لك علي حقاً.
انبرى يتساءل :
- وكرامة ابنك ؟
هنا، جرت السيدة **ماماس**، نحو الخزانة تفتحها. بعد قليل، عادت تردد في ساذج،مشوب بالحذر والخوف:
- هذا مبلغ خمسين ألف فرنك، منحه **السي حسن**، هو يعينك على السفر دراستك.
نظر إلى أخته، ثم إلى نفسه، وإلى والدته، فتسلمه منها بعد تردد؛ وقد تأكد التي تم بها تسفير أخته.
- أهذا كل ما أعطى ؟
أكدت **ماماس** :
- أجل، خمسون ألف فرنك، يا بني !
رمق أخته الواجمة بطرفه ثم مضى، ومعه المبلغ.

الحرية من أجل الكرامة، أو الكرامة من أجل الحرية... ! لا...

لم يذكر التاريخ أن فردا عاش كريماً بدون حرية، أو عاش حراً بدون كرامة. ومع ذلك، فأنت مقبل على سابقة خطيرة : تباع كرامة بمحضرك من أجل أن تصبح محامياً، تكون مرموقاً !

وعي، وتمرد كاذب، نقيض العاطفي. لقد استنفدت كل شيء. وها قد دورك، إزاء غرابة تتوالى بلا انقطاع. حرية الآخرين، قد لا تهمك. عليك أن تختار حريتك حرية أختك ووالدك. هناك كثير من والانحلال : أنتم شيء واحد !

غدا، تقف أمام المحاكم تلوك وفصولاً من القانون:" أجل سيدي الرئيس، إني أطالب بتعويض عن شرف موكلي المهان كرامته، فهناك مبدأ الكرامة الذي وضعت على أسسه قوانين لحمايته من كل إهانة تسرد الفصول المتعلقة بالموضوع... ألا تباً لك !

حقاً، في جميع الأحوال، إنك لا تتبنى حرية ميتافيزيقية. أترضى بأن ترهن حرية وكرامتها ثمناً لرداء المحاماة ؟

أترك ذلك الشيء لأهله. أطلب عملاً غير الدراسة الجامعية : كن رجلاً نموذجياً عادياً !

هكذا أصبح مفهوم الحرية والإنسانية المطلقة، ينفلت بين أصابعه. لم يعد يتحكم فيه. عليه فقط أن يعمل، ويفكر، ويقرر. تلك الحرية التي يفهمها نسبياً.

لمعت إشراقة غير كاذبة في خاطره؛ وهو يسير قدماً نحو المسجد للصلاة !

منذ أمد بعيد؛ وهو يبحث **تادينارت**، وفي **أحواش**. لم يجن والغيرة القاتلة. وفي بيت **سيدي الفاهم**، يحس إلا بالضياع. وعند **قاسم بن عدي** بوناً شاسعاً، وارتفاعاً كارتفاع ما بينه وبين قمم **الكست**.

تيه على تيه !

بساعديه يستطيع أن يتخلص من فقره وعوزه. لا عار في ذلك !

بل خير له أن يتمسك بأهداب عمل جدي، من أن يلجأ إلى ظلال حياة مائعة، كتلك يمهد لها **قاسم بن عدي** عليه " مشروع الحوامض والبواكير"، أو كالمبلغ الذي قدمه **السي حسن**، تمهيداً لإذاية شرف رفيع.

استبد به الشوق إلى **تعزة**، ليبوح بفيض مشاعره. تلألأت تلك المشاعر إشراقاً يسطع في كيانه، يغمر وجوده. خلع حذاءه

نحو القبلة يقيم الصلاة. كان المسجد غاصاً بالمؤمنين.

23

مضت ثلاثة أيام، لم يحضر **السي حسن** بعد، خلافاً للموعد الذي ضربه مع **السي** لا في اليـوم الأول، ولا في اليـوم الثـاني، الثالث.

أوجست السيدة **ماماس** أذنيهـا، حـتى يمر صـاحب دراجـة، لظنته **السي حسن** قادمـاً بســيارته. ثم تــأتي النتيجة : "أوف ! هــو ! فما من حــديث، إلا وكــان **السي** المنتظر، محوره. فالرجل صاحب السيارة، الـذي كان يحادث أحد الأوروبـيين أثنـاء زيـارتهم لـوادي أملن، مع الســفير، كــان يشــبه **السي حسن** وأبناء التاجر الفلاني، يشبهون في ملامحهم، أبناء **السي حسن**، فكـان بشـيراً منتظـراً بالنسـبة

للسيدة **ماماس**، ورسولاً مرتقباً لينتزعها من أنياب فقر، إلى حياة ملأى ترفاً وازدهاراً.

تضـــايق **عبد المالك** من خرافة رجل واحد ثري في نظر الناس في القرية، عادي في نظـــره هـــو. ما زالت العلاقة الاقتصار على سيد ومسود.

ما زال الآلهة الجـــــدد في يبحثون عن عقاب أبناء **سيزيف**، ليشـفوا غليلهم من العصاة الذين ركبوا أهواءهم. هؤلاء الأشقياء، ما اتعظوا. ما زالت إرادتهم ملتصقة بالصخور، أو الصخور هي التي التصقت بها.

ومع ذلــك، كــانوا يتعــذبون في يصعدون ويهبطون، دونما هدف. وكانت النساء يحملن رزمـاً من حطب كـرّوش، يتجنبن حـراس الغابة بين الصــخور العاليــة، حيث يتعــذر الصـعود. ما زالـوا ينتظـرون النسـاء في السـفح، للتعــرف على هــويتهن، قصد تحرير العقوبــات. مجرد لعبة تعمية !

إنهم مواطنـون، فكـانت لهم هـذه الأرض من قرون وقرون !

ولكن الخرائط تقول إنها" أرض محصـورة حبيسة ".

لم تكن خرائط **الحضيكي** تقول ذلك، ولم تشر إليه مخطوطات العلماء، الملفوفة في القصب.

يا **ويرزان**، انبعث من ترابك، حلّوفهم" الذي يرعى قي " الوصايا" في أمان.

يا **ويرزان**، اسألهم عن عدد السياح والسائحات الذين اصطادوا " حلوفهم".

انعطف يا **ويرزان** في منحدر، وانطلق نحو البركة، استرق السمع لتسابيح الضفادع، تمتع بالماء، ينساب شلالاً مسترسلاً صباح مساء. لا تخف !

كانت هذه الخواطر تداعبه على البركة التي سرعان ما تنداح تساقطات الشلال وسطها.

بغتة، سمع أصواتاً قادمة من السيارات، هب واقفاً. فجأة ظهر **سيدي الفاهم**، يجري و**أبا الحبيب** في أثره، وآخرون وراءهما.

هرول نحوه مولولاً:" وارأساه !" سأله : " ماذا **سيدي الفاهم**؟".

لم يحفل بالرد عليه، بل ارتمى بثيابه الحوض، رأساً إلى القعر.

تجمهر أصحابه أمام البركة، تساءلوا عمن له دراية بالسباحة. لا أحد بالطبع. تبع

الحبيب محاولاً أن يسبح، لكنه غاب، نزل إلى قعر البركة. وتغمغم الغريقان ...

كـثرت التعـاليق، فقيل : إن **أبا الحـبيب** سبح ليصحو من سكره.

لم ينتظر **عبد المالك**، فارتمى في حركة رياضية سابحاً، متقلباً بذراعه ذات اليمين، وذات الشمال.

وفي خفة سـباح مـاهر، انتشل **سـيدي الفـاهم**، خـرج به إلى الـبر، ثم كالسهم باحثاً عن **أبا الحبيب**.

سمع القرويون الضجة، فاستيقظ بعضهم، وقد ظنوا عودة **بورون**.

وفي **سـاحة الحـوض**، لم يشـاهدوا **عبد المالك**، وهو ينتشل **أبا الحبيب**.

سُمِعت التسـاؤلات : " مـاذا حـدث ؟ سقط من السكر"؛ " بل سقط يتبع **سيدي الفاهم**".

- السـكوت من فضـلكم. قـال **المالك**؛ وهو ما فتئ يقوم بعملية إفراغ الماء من معـدة **سـيدي الفـاهم**، بمسـاعدة أحد القرية.

وأخـيراً، حـرك **سـيدي الفـاهم** جفنيـه. كان شـعره في لـون الفحم، وطلاء أسـود ينحـدر على جبهتـه. ثم قـام بنفس

الحبيب حيث استغرق بضع ثوان؛ فما لبث **الحـــبيب** أن تقيأ مياهـــاً وشـــرع المنتظم. قال **عبد المالك** بصوت مسموع :

- ما هذا ؟

- رد عم **بوهو** :

- صـبغ **سـيدي الفـاهم** شـعره الأبيض شيباً بمسحوق صـيدلي أسـاء اسـتعماله، لم الكيفية المستعمل بها : رمى بالأقراص التي يجب أن يتناولها في القمامة، وضرب صفحاً عن زجاجات الشرب، ففعل مثله **أبا الحبيب**.

حينئـذ، علم **عبد المالك** أنهما يشـتكيان من حريق في رأســيهما، إثر إحساســهما المضاعفات. وسأله **عبد المالك** ثانية :

- ما الداعي يا **سيدي الفاهم** إلى تبديل لون الشعر؟

أجاب **أبا الحبيب** في تهكم بالغ :

- أما ســمعت أن **ســيدي الفــاهم** ضرب بهراوة من أجل شعيرات بيض ظهــرن رأسه لما كان يتغزل بفتيات من **أفلا-واسيف** ؟

انبرى **سيدي الفاهم** محتجاً :

- اخــرس، بل ضُــرِبْت من أجل أفكــاري الصحافية.

ضج الرفاق بالضحك، ثم انصـرفوا، وكلهم إلى حال سبيله.

24

استيقظ، نظر إلى ساعته : الثامنة ! انتفض واقفاً. وفي سرعة ارتدى ملابسه، وهبط الدرج :

- صباح الخير أماه !حياها وهي "الأسطوان" [13].

- صباح الخير يا ولدي.

ثم تبعه صوت رقيق، انبعث من بين أركان المطبخ:

- صباح الخير ؟

رفع إليها طرفه، رد في تباطؤ :

- صباح الخير !

براثن عقاب وحشي تقبض على أعصابه، جاثمٍ على صدره كالضاغوط، رغم الضحَكي الذي تبادله مع القرويين بعد الغريقين : مسكينان ! لم يجدا حلا لمشاكلهما إلا الغرق !

---

[13] **- الأسطوان : جزء من الطابق الأول في البنايات السوسية، يشمل المطبخ في وسطه، وغرفا للمؤونة والحطب، أو للطاحونة الحجرية، بسقف فيه ومدخنة تدعى " انزلا" فوق السطيح الذي هو جزء من الأسطوان.**

لمعت في خاطره بسمة، سرعان ما خبا ضوؤها، كشمس الشتاء، تظهر مرة بين السحب، ثم تختفي فجأة !

قـدمت له **زينة** الفطـور، وعـاد الوحشي بكل أثقاله إلى صدره، يحكم فيه مخالبـه، أكـثر من ذي قبـل. ثم قـال؛ وقد ببصره في أرجاء المطبخ البربري :

- أما زلت مصرة على السفر ؟

- أجل. تقول **زينة**.

لاحظت البرود على وجهه، ثم قـالت تود شحن طاقته :

- ستكون قريباً مني.

تنـاول فطـوره بالسـرعة الـتي ارتـدى ملابسه. صعدت والدته إلى السطح، في ارتقـاب **السي حسن**، ثم تبعتها **زينة**.

أما هـو، فقد اسـتدار، يهبط الـدرج، الطريق العمومي.

وفي اتجاه الواحـة، صـادف أحد الفلاحين. صافحه، ثم رأى والده مع جماعة يـثرثرون، فاتجه نحو البركـة. وثب إلى خـاطره حـادث الغـريقين مـرة أخـرى، تمتمت شـفتاه : " جمالك الشاعري لا يحل مشـاكلي كلهـا". إلا أنه قـرر

يمكث على حافتها عند مصب الشلال، ليرى **تعزة**.

رغبة جامحة تستبد به ليفرغ أسـراره في مسمعيها.

إذا بقي طـويلا سيسـتنفد هـذا القروي المحيط به بمن فيه **تعزة**، وجمال هذه البركة ذاتهـا، ثم ربما يسـتنفد نفسه **سيدي الفاهم وأبا الحبيب**.

كـان لا يـزال جالسـاً على حافة الحـوض، يولي ظهره للنساء. بعد دقائق، لاحت له، منسابة من أحد الزقـاق، في انحـدار نحو كالغصن، كالنسيم، كشجرة الصنوبر! هاهنا كـان ينتظرها حـتى تمر لملء جرتها النحاسـية الشلال القراح.

التقت نظراتهمـا، ابتسـمت شـفاههما ابتسـامات متبادلـة: كلاهما يفيض شـوقاً صاحبه.

أحس بأناملها تشد على يـده. وفي صـوت موح بكثير من السمو والاعتزاز، سمعها تقول :

- انتظرتك ثلاثة أيام. لم أعد أطيق الحيـاة بدونك ! ألا ترى أن كلينا يكمل الجانب الآخر ؟

في هـذه التكملة أيضا اسـتنفاد، انحلال، إفـراط في إزهـاق للمسـتقبل. وضـعت جرتها تحت الشـلال. وفي خفة ودلال

حملتها على عاتقها، ثم خلصت إليه. أخبرها؛ وهما ينعطفان أمام شجرة سماق مكثفة العرائش :

- الواقع أنــني أواجه صــراعاً ضد تحاول تخديش كرامتي.

اضطرب روعها؛ وفي ترقب واستطلاع :

- ألذلك علاقة بسابقة **بورون** ؟

حرك رأسه نفياً :

- **زينة** تواجه وضعاً غير مألوف.

- كالوضع الذي كنت أواجهه قبل أيام ؟

سكتت هنيهة، ثم استأنفت :

- لا يهم، الخاتم أرجعوه لي والبندقية.

وكأنه تجاهل قولها. أردف :

- لا خطوبة هنــاك على الإطلاق **لزينة**، بل ستصير خادمة لعائلة من **تافراوت**.

- ما الـــداعي إلى ذلك ؟ اندهاش.

ذلك هو ما يحاول أن يبوح لها به.تمتم :

- سوء أحوال الوالد المالية.

انتفض؛ وقد لمح والــده يحــادث **حسن**، الـذي لم يكلف نفسه حـتى عنـاء الـنزول من سيارته.

- إنه هو ! أتى أخيراً ليأخذها. يقول **لتعزة**.

انطلق يـركض نحو السـيارة في تلهـف، سمعها تقول وراءه :

- كن عاقلا !

اقـترب من السـيارة... حـتى ظل واقفـاً على بعد ذراع منها.

قال والده يحادث صاحب السيارة :

- هـذا هو ابـني **عبد المالك**، يكون محامياً بعد ثلاث سنوات.

تكلم الرجل دون أن يحفل **بعبد المالك** :

- ولى زمن التعليم ! إنهم الآن ليعيشوا ...

لتكن القطيعة التامة بينه وبين هذا الصنف من البشر ! لا تفاهم، ولا تقـارب. أليس في المقدمة خير دليل ؟ إنه لا يلقي كلامه جزافاً؛ بل دلته تجاربه على أن طائفة من الناس لا يستندون في أحكامهم إلا إلى أنانية عمياء.

سأله **عبد المالك** :

- هل يعـني ذلك مراجعة منـاهج التعليم تفاهته ؟

ودون أن يرفع عينيه إلى سائله، قال برزانة يحسد عليها؛ وإن كانت كاذبة :

- اطلبوا العلم ما شئتم، فلا بد من الرجوع إلى ما كان عليه آباؤكم، وإخوانكم، التجارة.

برم **عبد المالك** شفتيه، ثم سمعه يضيف :

- أحرى بنا وأولى- نحن التفراوتيين- أن نهتم بتجارتنا !

وأخيراً، هبطت **زينة** منحدراً والدتها. وكانت **تعزة** مازالت واقفة عن كثب، تتأمل **عبد المالك** يحادث **السي** رأت هذا الأخير، يقوم بفتح باب السيارة :

- هذا الرجل مثل أبيك، وامرأته كأمك، كوني طوع أمرهما. يقول **السي فاتح** ناصحاً **زينة**.

ترددت، قلبت بصرها بين والدتها أجهشت بالبكاء، حتى صار نحيباً، وبين أخيها الذي ركز بصره على صاحب السيارة.

تقدمت نحو أمها، عانقتها عناقاً حاراً.

تأثر الأب بهذا الموقف؛ وقد المناقشة الحامية مما دار بين ابنه وبين الوجيه

السي حسن، ثم رجعت **زينة** إلى والدها بدوره، تقبل راحته. كانت الدموع لا تزال منهمرة من مآقيها.

وبعد أن استرد الأب راحته، ارتمت **عبد المالك** تلتصق به معانقة إياه معانقة أخوية، انضمت إليهما **تعزة** بعد أن أسندت النحاسية إلى حقل مرصوص بالحجارة. غدا الموقف جليلاً !

تحلق حول السيارة بعض القرويين، يصافحون **السي حسن**. وفي أثناء ذلك، التقت العيون، رأى في عيني أخته استعطافاً وخوفاً من مصير مجهول.

لن يتركها تضل؛ وقد كاد يضل هو نفسه، بين **الأنامريين**.

وأمام الملأ، تقدم نحو الرجل المتعجرف قائلاً في لهجة حازمة :

- (ليقم صاحب الحاجة إلى حاجته) !

رفع **السي حسن** لأول مرة عينيه قال في استنكار، كأنه يخاطب صبياً دارجاً.

- كيف ؟

- أختي لن تسافر معك، وإليك المبلغ.

عد له خمسين ألف فرنك، هي تماماً سلمتها إليه والدته.

بُهت الرجل كأنه لا يصدق. وبعد أخذ ورد، لم يسعه إلا أن يتقبل المبلغ المعاد إليه، كما سلمه **للسي فاتح**.

أشعل محرك السيارة، ثم أطلق العنان منحدرة يميناً عند منعطف **أنيل**.

تشبثت **زينة** بأخيها، وانضمت **تعزة**؛ وقد علا الجوَّ سحابة من الغبار خلفته سيارة **السي حسن**.

قال والده :

- تعالوا جميعا نتسول.

ترك أخته، نحى **تعزة** برفق، ثم اندفع إلى الأمام، رامياً خطواته في انفعال. اندهشت **تعزة** :

- إلى أين ؟

ودون أن يلتفت إليها؛ قال :

- قد غيرت طريقي، إلى العمل في مكتب للطيران.

- متى تعود ؟ قالت **تعزة** في صبر نافد :

- قبل أن تورق الأشجار مرة واحدة.

انتهت

محمد الاحسايني

الدار البيضاء يبراير

1974

ظهر غلاف الكتاب

" نقطة الارتكاز في رواية **المغتربون**، هي الصراع الإثباتي في الوجود المتذبذب بين قطبين أساسيين، هما طـرح الـذات عند الشـخص الرئيسي في الروايـة، **المالك** كوجود متنامٍ، داخل مقدرات شخصية، وما يصـطدم به هــذا التنــامي من معوقــات تنجح في الأخــير، في الاتجاه المسـتقبلي **لعبد المالك**، تحت الضـغوط الطبقيـة، بكل نتائج هذا التحويل السلوكية والعلائقية.

وقد اسـتطاع كاتبها **محمد الاحســايني**، أن واقع قرية بربرية معزولة والفكرية... كما استطاع أن يجعل من الرواية خطوة جديدة في النص الروائي المغربي، عن طريق اختياره لهـذا البربري الجذاب المتميز، بعيداً عن الساحة الفولكلورية، وانطلاقــاً من فهم خــاص لمشــاكل المنطقة المترتبة **الاغـتراب**، كبعد واقعي، وفكـري، وشـعوري، وما ينتج من أثقــال القهر والعــذاب، مزاوجــاً بين هــذا المضــمون المتميز، وبين جمال جبل **الكست**..."

دراسة نقدية : مجتمع مدني من خلال بيئة قروية- الأسـتاذ **محمد عز الـدين التـازي** : جريـدة **المحـرر** 5/1/12/1974.

" **الفن في المغتربون** : 1- من أهم ما يتميز به أسلوب القاص، المقارنـة. فهو غالبـاً يشـرح حـالاً بحـال، ويقارن وضعاً بوضع. تستهدف المقارنة أغراضـاً كثـيرة، أهمها الانتقاد. 2- يعمد القاص إلى الوصف النفسي لأبطاله، والوصف لما تقع عليه عيون الأبطال من مظاهر الجمال في القرية... 3- تبدو لغة القاص متماسكة وقوية غالباً، وتـتراوح

بين مستويات تعبيرية متعددة الدلالات، فقد تبدو أحياناً لغة إيحاء خصبة. 4- يستغرق الوصف من القاص أغلب أجزاء روايته. والوصف مبرر تماماً لأن القاص يريد أن يطلعنا على وسط قلما اطلعنا عليه من خلال كتاب القصة في المغرب. وهذا أيضاً جانب التوفيق في منجزات الأديب الفنية. يخلط الكاتب بين طريقتين من طرق رصد والذكريات، تتشكلان معاً في عنصر واحد، التداخل بين طريقة الاسترجاع وبين كتابة التقرير. 6 القاص إلى التحليل النفسي ليعمق اطلاعنا على الأبطال".

المغتربون والأبعاد الأولية لمفهوم الغربة :**أحمد الحلو/ أقلام** (المغربية)/عدد 3/ أبريل 1978 .70/71